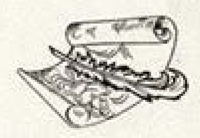
الأعلام من الأدباء والشعراء



كعب بن زهير

حياته وشعره

إعداد

محمد علي الصباح

ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



الأعلام من الأدباء والشعراء

كعب بن زهير

حياته وشعره

إعداد
محمد علي الصباح
ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

مقدمة

كعب بن زهير، أحد فحول الشعراء المخضرمين، عدَّه ابن سلاّم من شعراء الطبقة الثانية ووضعه قبل الحُطيئة.

كان في مقتبل العمر عند ظهور الدعوة الإسلامية، شاب مَعْتَدٌّ بنفسه وبشاعريته، فخور بقومه وأهله، وخاصة والده زهير بن أبي سلمى، الذي ملأ صيته البوادي، وشغل الوبر والحضر، وتغنت بحولياته[1] الركبان.

لم يتقبل كعب الدين الجديد بسهولة، لا بل ناصبه العداء، حتى إذا ما أعلن أخوه بجيرٌ اسلامه، وعلم كعب بخبره، ارسل إليه أبياته الشهيرة يسخر بها منه ويحثه فيها على ترك الإسلام والعودة عنه إلى دينه القديم، والتي بسببها أهدر الرسول ﷺ دمه.

وظل كعب على وثنيته حتى فُتحت مكة، وانصرف الرسول ﷺ من الطائف، فكتب إليه أخوه بجير أن النبي ﷺ قتل كل من آذاه من الشعراء المشركين إلا من أعلن إسلامه، ودعاه أن يقدم على رسول الله تائباً، وكان ان شرح الله صدره

(١) اشعاره التي كان ينظمها وينقحها في حول «عام» كامل كما يقال.

للإسلام، فقدم المدينة وبايع الرسول ﷺ واعلن إسلامه. منشداً بين يديه مدحته الشهيرة الخالدة، فكساه النبي ﷺ بُرْدته، التي اكتسى بها كعب حُلةَ مجدٍ لا تُبلى على مَرِّ العصور، ولُقِّبت قصيدته «بالبردة»؛ كما عُرفت القصائد التي عارضتها ونهجت نهجها «بنهج البردة».

وهكذا حسن اسلام كعب، فاتخذ من الرسول جَاراً أو ملاذاً، كما أصبح من الصحابة الابرار، فصفت نفسه، وأخذ يستشعر معاني الإسلام الروحية، وما دعا إليه من الخلق الكريم، بعد ما كنا نراه دائماً في شعره الجاهلي مفاخراً متوعداً مهدداً، في نفسه شر كثير، كما يدل عليه ديوانه وتأخره في إسلامه.

وبعد، فإننا نضع بين يديّ القاريء حياة كعب وشعره آملين أن يستشعر فيهما الروح الإسلامية التي غيرّت كعباً وحوّلته إلى إنسان فيه كثير من الحكمة والصبر والتلطّف.

النبطية ٦/ ١٢/ ١٩٨٨

محمد علي الصبَّاح

لمحة تاريخية عن ديار العرب قبل الاسلام

إذا قِيلَ ديار العرب تبادرت فوراً إلى الذهن خيالات الجزيرة العربية، تلك المنطقة الصحراوية العارية إلاّ من كثبان الرمل وحرارة الشمس، ومع أنه كان لقوم منهم مواطن في البلاد الشامية والعراقية، كالغساسنة والمناذرة، إلاّ أن هذه الربوع على جمالها وتحضر بعضها، لم تكن تمثل إلاّ جزءاً يسيراً من ديارهم بالنسبة إلى الجزيرة العربية الواسعة الأرجاء، فالجزيرة هي مهد العروبة الخالصة، وكل عربي أصيل، ينتمي إليها، وإن بعدت به الدار عنها وشط المزار.

وسُمِيت جزيرة مع إن البحر لا يكتنفها إلاّ من نواحٍ ثلاث، وذلك من قبيل التوسع، وكان بالأحرى أن تُسمى شبه الجزيرة العربية، فالبحر الأحمر يحيط بها من الغرب، ومن الشرق الخليج العربي أو الخليج الفارسي أو خليج العجم، كما يحلو للبعض أن يُسميه، ومن الجنوب المحيط الهندي، وأما الشمال فإنه مُتصلٌ بأرض الشام والعراق.

والجزيرة العربية خمسة أقسام: القسم الأول اليَمَن في الجنوب ويقال لها الخضراء أو السعيدة، لما فيها من المزارع

والاشجار والمراعي والمياه، وتقسم اليَمن بدورها إلى خمسة أصقـاع[1]، وهي حَضْرَمَـوْت، وَمهرَة، والشُّحْـر، وعُمَان، ونجران. ومن مدنها الشهيرة صنعاء، وكانت سرير[2] ملوك اليمن، وفيها قصر غُمْدان؛ ومدينة مأرب ويُقال لها سبأ وفيها العَرِم، وزبيدة، وعَدَن، وظفار قاعدة بلاد الشُّحْر.

والقسم الثاني: العَرُوض، وسُميت كذلك لاعتراضها بين اليمن ونجد، وتشمل كلًّا من البحرين واليمامة.

والقسم الثـالث: تِهـامــة، وتقـع على شــاطيء البحـر الأحمر، بين اليمن والحجاز، وفيهـا طريق القـوافل إلى الشام. ومن مُدُنِها مكة وفيها البيت والكعبة وغار حِراء.

القسم الرابع: الحجاز، بين نجد وتهامة، أشهر مدنه يثرب، التي أصبحت فيما بعد مدينة الرسول ﷺ، والطائف، وخيبر، وفيه سوق عُكاظ، وماء بَدْر.

والقسم الخامس: نجد، وهو صَقْعٌ مرتفعٌ، طيب الهواء، لهج بذكره الشعراء، ويقع فيه «أرض العالية» التي كـان يحميها كُليب. ويقع هذا القسم بين العراق شرقاً، وبادية الشام شمالاً، والحجاز غرباً، واليمامة جنوباً.

---

(١) مفردها صقع، وهو قسم من الأرض.
(٢) عاصمة المُلك.

وفي الجزيرة جبال وأودية وصحراوات وحَرَّات[1]. فمن جبالها أجأ وسلمى في جنوبي بادية السماوة؛ وهما منازل بني طيء؛ ورَضْوَى بالقرب من يَنْبُع، وأُحُد في شمالي يثرب، وأبو قُبَيْس في شرقي مكة، وأبان الأبيض في شمالي وادي الرُّمَّة. ومن أوديتها وادي القُرى بالقرب من يثرب، ووادي الرُّمة بعالية نجد، ومن بواديها بادية السماوة، وهي عبارة عن رمال وُعْس[2] يصعب فيها السير بسبب نعومة رمالها حيث تغيب فيها الأقدام. هذا بالإضافة إلى قلة الماء والكلأ؛ والدهناء وهي عبارة عن سبعة جبال من الرمل بين يبرين وفَيد، ويبرين هذه رمال كثيرة بين اليمامة والبحرين، وفَيْد بلدة صغيرة تقع في منتصف الطريق بين مكة والكوفة؛ وهي كثيرة المراعي رغم قلّة الماء. قال عنها ياقوت الحموي: «إذا أخصبت الدهناء، ربَّعت العرب جمعاء». ورمال الاحقاف بأرض اليمن بين عُمان وحضر موت. ومن حرَّاتها، حرة[3] سُلَيم في عالية نجد، وحرة واقم شرقي يثرب، وفيها كان يوم الحرة في خلافة يزيد بن معاوية، حيث انتهب فيه عسكرُ الشام المدينة سنة ثلاث وستين هجرية.

ومُناخ الجزيرة يختلف باختلاف ارتفاعها وانبساطها، ففي

(١) مفردها حرَّة وهي أرض بركانية سوداء اللون، ذات حجارة سُود كأنها أُحرقت.

(٢) أي لينة ناعمة، تغيب فيها الارجل.

(٣) وهي أرض ذات حجارة سود كأنها أُحرقت.

الجبال وعلى شاطىء البحر الجنوبي فهو معتدل، وفي السهول حارٌ، كما تهب ريح محرقة من الجنوب والغرب تعرف بريح السَّموم. ويهطل المطر شرقي اليمن وشمالها ابتداءً من حزيران إلى تشرين الثاني، وتكثر الأمطار في حضرموت في فصل الربيع، وأما الأقاليم الشمالية فهي قليلة الأمطار، قليلة المياه، لا تنبت العشب ولا الشجر إلا في بعض الأماكن، وأكثر شجرها شائك لظمئه إلى الماء، ويشتد البرد والصقيع إذا احتبس المطر، وثارت الريح من ناحية الشام وهي رياح تهب من الشمال تنذر البدوي بالبرد والقحط والجوع، ومنها اشْتُقَ التشاؤم، حتى إذا أقلعت خَفَّ القُرُّ. وتهب الريح اليمانية رخاءً، تبشر بقدوم المطر والربيع والشبع ومنها اشْتُقَ التيمن، وصار الأعرابي يتطير بكل ما يأتيه من ناحية الشمال ـ عن شماله ـ ويتفاءل بكل ما يأتيه من ناحية اليمن ـ عن يمينه ـ. وكان الشمال موطن العرب العدنانية الذين يعودون بنسبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم من جاريته هاجر، وهم من العرب المستعربة. كما كان الجنوب موطن العرب القحطانية، الذين يرجعون بنسبهم إلى يعرب بن قحطان وأولاده، وهذا لا يعني أن الشمال استأثر بالعدنانية وحدها، بل اتخذ بعضُ قبائلها الجنوب موطناً لها، وكذلك أطراف الشام والعراق.

كما غلبت البداوة الخشنة وسكن الخيام على عرب الشمال، فكان العدنانيون في كثرتهم بدواً رُحَّلاً لا يأنسون بقرية، ولا يسكنون بيتاً معموراً، إلا أقلهم كبني قريش في مكة، وبني ثقيف في الطائف. على أن هؤلاء البدو الجفاة هم الذين أنبتو فحول الشعراء، وجاءنا عنهم الشعر الكثير.

أحوال العرب الاجتماعية في الجاهلية

عُرف الشعر الجاهلي بأنه ديوان العرب لاشتماله على أخبارهم، وسائر أحوالهم، فجدير بنا، ونحن نمهد لدراسة هذا الشعر بصورة عامة، ودراسة شعر كعب بن زهير بصورة خاصة، أن نمهد بلمحة تاريخية، وأن نُلمَّ بأخلاق القوم وصفاتهم، وما لهم من عادات وتقاليد، وما يعتنقون من عقائد ونظم وعلوم؛ فإن هذا الالمام يساعد على دارسة شعرهم واستجلاء مراميه.

شخصية البدوي وأخلاقه: للبدوي شخصية قوية تظهر بأنانيته، وحبه الخير لنفسه دون غيره، والاستئثار بالجاه والذكر الحسن والصفات الحميدة. ونزوعه إلى الحرية والاستقلال، وتظهر في جَلدَه وصبره على الفقر والجوع والظمأ ومغالبة الطبيعة في صحرائه القاسية العاتية، هذه الصحراء التي لفحته بحرها فتركته أسمر اللون يابس الجلد خفيف اللحم، أسود العينين والشعر، واستولت على إحساسه بوحشتها، فجعلته حاد السمع والبصر سريع التأثر، متوتر الأعصاب، مذعناً للقضاء والقدر، وصيرَّته بشُحها

وبخلها وقحطها كريماً مقداماً يُقْري الضيوفَ ويمنع الجار، ويغيث الملهوف، حتى اصبح حب القِرى وحُسن الجوار من طبائعه، يُفاخر بها، ويرى أنه من العار عليه ألاَّ يكرم الضيف ويحمي الجار. ولم تكن الصحراء العربية سخية ولا رحيمة بأهلها، كما لم يكن أهلها رحماء بينهم ولا متناصفين. فالحياة عندهم تقوم على التنافس الشديد، والعنف الذي لا هوادة فيه، والقسوة التي لا تلين، والقارىء لشعرهم وآثارهم يستطيع أن يرى بوضوح أن القوة في كل صورها هي المثل الأعلى الوحيد الذي آمنوا به وحرصوا عليه. فكل ما نالته يد القوي فهو حق له. الفضيلة عندهم هي الرجولة، والشجاعة، والاقدام، وركوب المخاطر والاهوال، والتجلد للمكاره والخطوب. للقوي صفوة الحياة ومتاعها، وللضعيف الفضل والعفو. فالضعف في كل مظاهره هو الجريرة[1] الوحيدة التي يعيَّر بها الرجل، ويذوق من جرائها الهون[2] والنكال[3]. لم يكن بينهم للخيِّرين الوادعين مكان. وإنما كان المكان الأول للظالم الغاشم، الذي ينتزع نصيبه انتزاعا من معترك الحياة جريئاً مقداماً، ويستخلصه عزيزاً مقتدراً.

---

(١) الذَنْبُ.

(٢) الذُلّ.

(٣) العِقاب أو النازلة.

يغير النفر القوي على النفر الضعيف، فيجليه عن الماء، ويغصبه ماله وإبله ومتاعه ويخلفه على نسائه. يرد القوي الماءَ فيشرب صفوة وينتظر الضعيف خلو المورد، قانعاً بالطين والكدر. ويقضي القوي الأمر، والضعيف مُخلّفٌ لا تصغي له أذن، ولا يقام لرأيه وزن. فأهل الجاهلية من العرب، والبدو منهم خاصة لا يحقرون الظالم لظلمه، ولكنهم يعيرون المظلوم لضعفه، وهم قوم لا يسألون الضارب لِمَ ضربت، ولكنهم يسألون الباكي لِمَ بكيت. وهم لا ينظرون إلى المغتصب هذه النظرة المهينة التي نرمق بها اللص وقاطع الطريق. ولكنهم ينظرون إليه نظرة البطولة والإعجاب، ما دام يسعى جهرة، ولا يدب دبيباً، ويتستر متزاوراً. ولم يكن يستغيث بالسلطان منهم إلا الضعيف العاجز.

الحياة القبلية: كانت الأعراب في البادية تعيش قبائل متقاطعة، لا يجتمع بعضها إلى بعض إلا في حلفٍ موقوتٍ. فلم يستطيعوا أن ينشئوا في صحرائهم مجتمعاً راقياً، وقومية شاملة، أو دولة قوية موحدة ذات مِنعة، وكان بين الفرد والقبيلة صِلةٌ متينة مكينة تجعل الفرد بكُليته للقبيلة، كما تجعل القبيلة بكليتها للفرد، حتى إذا نزل عارٌ بالقبيلة أصاب كل فرد منها، وإذا نَبَهَ ذكر فرد في قبيلة عاد فخره إلى القبيلة

بأسرها، وكانت القبيلة تتحمل جناية ووزر كل فرد فيها، وتنصره ظالماً كان أو مظلوماً. وقد يُتفق أن تخلع القبيلة من تكثر معراته[1] أومن لا تستطيع حمايته، فيلجأ إلى قبيلة أخرى، أو يعيش عيشة الصعاليك المشردين.

سيد القبيلة: والبدوي انطلاقاً من استقلاله القبلي ينكر سيطرة الغريب عليه، ولا يقبلها إلاّ مكرهاً، حتى إذا أصاب فرصة انتفض عليه وأزاله، كما انتفض بنو أسد على الملك الكندي[2]، وعمرو بن كلثوم على عمرو بن هند. ولكنهم يذعنون لسيدٍ منهم، إذا رأوا في سيادته خيراً لهم، فكان لكل قبيلة سيدها يجمع شملها ويقودها في الملمات العصيبة. والسيادة لا تستقر طويلاً في بيت واحد وذلك للأنانية الموجودة في نفس الأعرابي، ونزوعه الدائم إلى المنافسة، إذ لا شيء يمتع نفس البدوي مثل هذا التبدل المتوالي في الرؤساء، فإنه يقطع بذلك تلك الوتيرة الواحدة التي تجري عليها الحياة في الصحراء، فكانت السيادة تنتقل في القبيلة الواحدة من بيت إلى آخر وقلما تعددّت في بيت واحد، وهم مع ذلك متنافسون فيها، وقَلَّ أن يُسلِم أحدهم الأمر لغيره، ولو كان أباه، أو أخاه، أو كبير عشيرته، إلاّ في الأقل النادر،

(١) سيئاته.

(٢) عمرو بن حُجر.

فيتعدد الحكام منهم والأمراء، وكان تعددها من مفاخرهم. واشرف البيوت عندهم بيت تتابعت فيه رئاسته آباء ثلاثة، ثم أتصلت بالرابع، فيسمى الكامل، والبدوي في عنجهيته وحبه للرئاسة لا يخضع لمن هو في مستواه، وإنما يخضع لمن هو أقوى منه، وعلى الرئيس أن يتحلى بصفات محمودة، لتتحقق له السيادة في قبيلته، وكانت من أَجَلِّ هذه الصفات، الغنى والكرم والحلم والشجاعة والفصاحة. كما احبت العرب بالرجل الخفة والنشاط، لذلك كرهت فيه أن يكون سميناً مكتنزاً، لأنهم رأوا في السمن والاكتناز آثار النعمة والترف، والركونِ إلى الكسل والخمول والدعة. وأحبوا فيه أن يكون نحيلاً خفيف اللحم، من أثر السهر، وسُرى الليل وسير النهار، واقتحام الأهوال، وطيِّ الرمال، والصبر على المكاره ساعة النزال.

المرأة: وعكس هذه الصورة التي أحبوها في الرجل كان يُستحب في المرأة. كانوا يصورونها وقد تراكم عليها اللحم والشحم، فهي لا تكاد تقوى على حمل جسمها. وكانوا يرون أن هذا السمن مظهر الترف والنعمة. فالمرأة المترفة يحميها رجل قوي، يستطيع أن يدفع عنها كل عدوان، ويكفيها أن تمتهن وتهان، ويجلب لها الثروة والمال من كل مكان. كما أحبوها أن تكون بيضاء اللون، سوداء الشعر،

مديدة القامة، دقيقة الخصر، عظيمة الأرداف، لها وجهٌ ناعم مصقول، وشعرٌ حالك مفتول، وحاجبان دقيقان مقوّسان، وعينان كمثل عيون الظبي[1]، وفمٌ رقيق صغير، وشفتان حمراوان كالورد، وعنق ناهضة بيضاء، وصدر واسع عريض فيه ثديان نافران صلبان، وردف ثقيل قائم كالكثيب من الرمل، وفخذان أبيضان، وساقان ممتلئان . . . والبدوي ينظر إلى المرأة كأداة للّذة والنسل يريد منها أن تلد له غلماناً ينافس بهم غيره من الناس، والمنافسة بكثرة البنين من عاداتهم لأن الصبيَّ يُرجى للذود[2] عن الحمى[3]، وإحياء الذِّكر، وبه يتسلسل النسب، فكانوا يكرهون ولادة البنت، وربما تشاءموا بها فوأدوها، وعُرف الوأد في قبائل العرب قاطبة، بيد أنه لم يكن شاملاً، حتى جاء الإسلام فأبطله. ولقد بلغ من تمكن صورة الشراسة والعُنف في نفوسهم وقتذاك، أنهم كانوا يزعمون أن المرأة إذا حملت، وهي مكرهة على ذلك، كان ابنها أنجب. ولهذا كان الرجل منهم إذا أراد أن ينجب من زوجته أغضبها. وهم يقولون في ذلك (إن ولد المذعورة لا يطاق). وكان يهمهم تزويج الحرة البيضاء، لأنها كانت

---

(١) بقر الوحش.

(٢) للدفاع.

(٣) عن الديار أو الوطن.

عرضة للسبي، فإذا صارت في كنفْ زوج، وضمها حماه، كانت غِلاًّ[1] في عنقه. وقد تُخيَّرُ الفتاة في أمر زواجها إذا كانت فطنة رشيدة. وكان البدو يتزوجون صغاراً نظراً لطبيعة أرضهم ومناخها ولرغبتهم في البنين. فكان الفتى منهم يتزوج في الخامسة عشرة، والفتاة في العاشرة وربما قبل بلوغ هذا السن. وكانوا يرغبون في زواج البعداء ليتألفوا اعداءهم بالمصاهرة، ويكثروا الأحلاف، وهم إلى ذلك يعتقدون أنه أنجب للولد وأبهى للخلقة، كما كانوا يجتنبون زواج الأهل والأقارب، ويرونه مضراً بخَلق الولد ونجابته.

ويخطب البدوي إلى الآخر ابنته، فيصدقها ثم يُعقد له عليها. وله حق تعدد الزوجات مقدار طاقته، إلّا إذا اشترطت المرأة عليه عدم التعدد، وتعاقدا عليه، وكانوا لا يجمعون في الزواج بين الاختين، ولا بين المرأة وابنتها، ولكنهم اسْتَحَلُّوا زواج امرأة الأب، فأبطله الإسلام، وسماه زواج المقت لأنه ممقوت. وربما تزوج بعضهم نساء بعض في غاراتهم وغزواتهم بلا عقد، أو ربما ذهبت المرأة إلى معاشرة عدة رجال في وقت واحد، فيأتي الولد لا يدري ممَّنْ أبوه، فتلحقه أمه بمن تريد من الرجال الذين عرفتهم، ولا يرفضه

---

(١) قيداً.

الرجل وخاصة إذا كان ذكراً، أو يلجأون إلى القيافة[1] ويلحقون بأقربهم إليه شبهاً. كما كانوا يفاخرون بالولد إذا كانت أمه حرة بيضاء زاكية الأصل، ويسمونها أُمُ البنين إذا ولدت ثلاثة أو أربعة من الذكور أو أكثر، ويفاخرون بالأخوال، ويشبهون الأولاد بهم دلالة على النسب الحُر، أمَّا الأمَةَ فتكون على الغالب سوداء، ولا يُعرَف بأبنائها إلا بعد أن تظهر نجابتهم، كما كان للزوج عندهم حق الطلاق دون المرأة، إلا إذا هي اشترطته في عقد الزواج، وكان يحق للزوج أن يسترجع امرأته بعد تطليقها ثلاثاً، وإذا أرادت المرأة تطليق زوجها حوَّلت باب بيتها (خيمتها) إلى الجهة المقابلة، فيعلم عندئذ زوجها أنها طلقته، فلا يجوز له بعد ذلك دخول خبائها، وكانت إذا مات زوجها تربَّصت سنة معتدة[2] لا تخرج من بيتها، ولا تمس ماءً، ولا تُقلم ظفراً، حتى إذا استكملت عدَّتها خرجت على الناس بأقبح منظر واقذره. والعدَّة للمرأة هي انتظار ليعلم فيها هل المرأة حامل من زوجها المتوفي أو لا. وكانت نساء العرب يصحبن رجالهن إلى الحرب فيحضضنهم على الصبر في مواقف القتال، ويمنعنهم أن يلوذوا بالفرار، كما كانوا يداوِيْنَ الجرحى، ويقدمن لهم الزاد

---

(١) معرفة نسب الولد من خلال أعضائه وهيئته.

(٢) جعل الإسلام عدة المرأة اربعة اشهر وعشراً.

والماء ويطعمن الجياد. وللمرأة حق الجوار كما للرجل، وعلى الرجل أن يحمي امرأته واخته وأُمه وجارته كما يحمي جاره هو.

كما عُرفَ منهن غير واحدة بالشجاعة، والفصاحة وقول الشعر، وحسن الرأي والحكمة والعرافة. ولكنهن كنَّ مُستضعفات في الجملة يحتقر الرجال مكانتهن، ويتشاءمون بولادتهن، ويسيئون الظن بأخلاقهن، فينعتونهن بالكيد والمكر والخيانة والخداع.

غزواتهم: كان للعرب حروب كثيرة في جاهليتهم، أو قل هي غزوات غير منظمة، ومن عاداتهم أن يجعلوا من أيامها مادة لفخرهم، وإخزاء اعدائهم، وكثيراً ما كانت تقع من أجل النهب والسلب أو المزاحمة على الماء والكلأ، أو لأسباب تافهة، كحرب البسوس التي نشبت لمقتل ناقة من الإبل، وكان الدافع إليها الحفاظ على الجِوار؛ وحرب داحس والغبراء[1] التي أفض إليها التنافس في الرهان بين سيدي القبيلتين. وربما وقعت الحرب لدفع عدو غريب كحرب ذي قار التي جرت بين الفرس وبني بكر، وحروب اليمن والاحباش وهذا النوع من الحروب نادر، وإنما كانت حروبهم في الغالب

(١) اسما حصان وفُرس.

داخلية قبلية، حتى إذا ما خرجوا بها عن شبه جزيرتهم فإلى تخوم العراق والشام ليتقاتلوا نيابة عن كسرى وقيصر. وكان البدوي يتحامى القتل جهده، لأن تقاليدهم تقضي بأخذ الثأر أو دفع الدِيات الثقيلة؛ وقد لا تغسل الدِيات الأحقاد، لما في قبولها وترك نداء الدم من غضاضة، ثم لاعتقادهم أنه إذا قُتل الرجل منهم، ولم يُؤخذ بثأره، خرج من رأسه طائر يشبه البوم يسمعونه الهامة أو الصدى، فلا يزال يصيح، اسقوني! اسقوني! حتى يُقتل القاتل أو أحد أقاربه، فشريعة أخذ الثأر خففت حوادث القتل وفرضت على الموتور أن يحرم على نفسه أحب الأشياء إليه كالنساء والخمر والعسل والطيب، لا تحل له هذه الاشياء إلاّ بعد أن يأخذ بثأره. ولم تعرف القبائل الجيوش المنظمة، بل كانت جيوشهم عبارة عن أشتات يقودها سيد القبيلة أو من ينوب عنه. وكان من عادة القبيلة أن تشترك كلها في الحرب للدفاع عن مالها ونسائها وأولادها؛ وقلما عرفوا قتال الزحف والثبات، بل كان الفَرُّ في حروبهم ملازماً للكر، وكان سلاحهم السيف والرمح والقوس والمِجن[1]، ويلبس فرسانهم الدروع والمغافر[2]. وكانوا

---

(١) الترس.

(٢) جمع مغفر أو هي مغفرة: زردٌ يُنسج من الدُروع على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.

يرفعون الرايات، ويتغنون بالشعر ويرتجزون محمسين أنفسهم، حتى إذا تمَّ لهم النصر، عادوا بالأسلاب والسبايا فاقتسموها فيما بينهم، وأما الأسرى فمصيرهم إلى القتل أو يقدموا الفداء، ولا يطلقون الأسرى إلّا بعد أن يجزوا نواصيهم[1]، إمعاناً بإذلالهم.

معايشهم: كان عرب البادية يعتمدون في عيشهم على رعاية الماشية، ثم على الغزو والصيد والقنص وحراسة القوافل. وأما أهل الحضر فإن وسائل الرزق كانت أوفر لديهم، فقد عرفوا أركان الحضارة والعمران الثلاثة وهي: التجارة والزراعة والصناعة. وكانت اليمن في مقدمة البلاد العربية تحضراً وخصباً، فانبسطت تجارتها، ونمت زراعتها، وتوافرت لها الصنائع المختلفة ولا سيما الوشي والحياكة. وعرب الشمال رغم بداوتهم وخشونة عيشهم فإنهم لم يُحرموا نعمة التجارة في حواضرهم، فقد كانت مكة في توسطها الطبيعي ومقامها الديني، محطة لقوافل اليمن والشام، وسوقاً تجارياً رائجة تُعرض فيها بضائع التجار. واشتهر أَهْلُها برحلاتهم التجارية، فكانت لهم رحلتان في السنة: رحلة الشتاء، ورحلة الصيف إلى كل من الشام واليمن. كما أن

---

(١) جمع ناصية وهي مقدمة شعر الرأس.

أهل يثرب عرفوا التجارة ولا سيما اليهود منهم. وكانت لهم أسواق تُقام في أوقات معلومة للبيع والشراء، أعظمها سوق عكاظ. وكان عرب الحيرة يتجرون مع الفرس، ويتولون حماية قوافلهم في عرض القفار.

وكان للزراعة شأن في بعض الحواضر الشمالية كالطائف ويثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء. أمّا الصناعة فإن الاعراب كانوا يحتقرونها ويعيرّون صاحبها. فهم أبعد الناس عنها. ومع ذلك فقد ألموا بأشياء منها كالحدادة والنجارة والخياطة والصياغة، وكانت هذه الصناعات في القُرى المعمورة كمكة ويثرب والطائف.

أديانهم: وكان العرب في جاهليتهم على أديان مختلفة، ومذاهب متعددة، يؤلهون الأصنام والكواكب، ويعبدون الله، ويخلطون المذاهب بعضها ببعض، مازجين التوحيد بالشرك، والعقائد السماوية بالعقائد الوثنية. وهم إلى ذلك ليسوا على دين ثابت أو عقيدة مكينة، شأنهم في ذلك شأن حياتهم المتنقلة المضطربة. وكانت الوثنية في القبائل أعم وأكثر انتشاراً، والأصنام منصوبة في كل ناحية من نواحي الجزيرة، ولا سيما الكعبة، وتزعم الرواية العربية أن أول من دعا إلى عبادة الأصنام هو عمرو بن لحيّ، وكانوا على بقية من دين إسماعيل فأفسد بذلك عقائدهم. وأمّا الطواغيت

الكبار فهي ثلاثة: اللات وهي تحريف لفظة الإلهة، والعُزّى، ومناة[1]. وكانت كل واحدة منها لمصر من أمصار العرب، فاللات لأهل الطائف، والعُزى لأهل مكة، ومناة لأهل المدينة. وكانت العرب تعظم هذه الربات، وتجعلها بنات الرحمن، وتقصدها من كل صوب، وأما اصنام الكعبة فكثيرة منتشرة حولها وفي داخلها، وكان أعظمها هُبل[2]. وكانوا يستقمسون عنده بالقداح، ويستخيرونه في أمورهم وأعمالهم. وكانت الكعبة مزاراً لأكثر القبائل، يحجون إليها، ويكسونها الحلل والديباج، وينحرون عندها متقربين، ويريقون دم الذبيحة على أوثانها، وكانت السيادة عليها لقريش دون سواها. وكان في العرب طائفة من عبدة الكواكب كحمير قبل أن يتهودوا، ومنهم من عبدة النار، أوالقائل بالثنوية، أو بالدهرية. ومنهم من أحل زواج الأب بابنته. وهذه العقائد سرت إليهم من الفرس والمجوس وما عندهم من معتقدات مزدكية ومانوية.

على أن العرب، مع إشراكهم وتعدد معبوداتهم، كانوا

---

(١) مناة هي أقدم الطواغيت الثلاثة وكانت منصوبة على ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة، تعظمها الأوس والخزرج، وتسدنها هذيل وخزاعة.

(٢) وهو صنم من عقيق أحمر على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى، أدركته العرب كذلك فجعلوا له يداً من ذهب.

يميلون في جملتهم إلى التوحيد، ويتقربون إلى الله الواحد بعبادة الأصنام والكواكب فيجعلونها ذرائع للوصول إليه.

عقائدهم: كانت العرب تؤمن بوجود الجن والعفاريت، وبمخالطتها للإنس في السُكنى والاستهواء والمؤاكلة والزواج، ويؤمنون بزجر الطائر، يتفاءلون به إذا سنح[١] ويتشاءمون إذا برح[٢]، ويؤمنون أيضاً بالكهانة[٣] والعرافة[٤] والهامة، ويعوِّذون أطفالهم بسن ثعلب وسن هرة خوفاً من الخطفة والنظرة، كما يتعوذون من الجن بالأدعية وسواها.

علومهم: أَلمَّ العرب في بداوتهم ببعض العلوم التي يحتاجون إليها في حياتهم الفطرية، فقد عرفوا شيئاً من الطب والبيطرة، وكانوا يداوون مرضاهم بالعقاقير والكيِّ، والحجامة والأشربة وخصوصاً العسل، وربما استعملوا السحر والرُّقي والتعاويذ لإبراء الملسوع وإخراج الجن والشياطين. وكان أطباؤهم في الأغلب من الكهان والعرافين. كما عرفوا شيئاً من علم النجوم ومهاب الرياح بكثرة تتبعها والنظر إليها لأنهم كانوا يهتدون بها في أسفارهم، ويستدلون على سقوط

---

(١) مرَّ عن اليمين.
(٢) مرَّ عن اليسار.
(٣) علم الغيب.
(٤) علم المستقبل أو الماضي.

الغيث. وكانت لهم معرفة بالأنساب والأيام والاخبار والأساطير، وبالقيافة وهي الاستدلال بهيئة الانسان وأعضائه على نسبه، والاستدلال بآثار الأقدام على أصحابها، وبالكهانة، وهي معرفة الأمور المستقبلة وتعبير الرؤى والأحلام، وبالعرافة، وهي مختصة بالأمور الماضية. وكان أشهر الكهان عندهم شِق وسطيح، وهما من أهل الأساطير، فقد زعموا أن شقاً وسطيحاً كانا من أبناء الخالات، وكان شِق نصف إنسان من أعلى إلى أسفل، وسطيح جسداً مُلقى لا جوارح له، يدرج كالثوب، ووجهه في صدره، وليس له رأس ولا عنق، ولا يقدر على الجلوس، إلا إذا غضب، فإنه ينتفخ ويجلس. وكانت ولادتهما في يوم واحد، وقيل إنهما عاشا ستمائة سنة، وقيل أن سطيحاً عاش سبعمائة سنة ومات في زمن كسرى أنو شروان. ومن أشهر العرافين عندهم عرّاف نجد، وعرّاف اليمامة. وكان عرب اليمن والحواضر المتاخمة أوسع علماً وحضارة من عرب البادية لاتصالهم بالفُرس والروم والسريان.

لغة العرب وأدبهم في العصر الجاهلي

اللغة: اللغة العربية هي إحدى اللغات المشتقة من الأصل السامي، ويوجد بينها وبين شقيقاتها مشابهات كثيرة. وكانت في العصر الجاهلي على لسانين، اللسان الحميري في الجنوب، والعدناني في الشمال، وكل منهما يغاير الآخر في أوضاعه وأحكامه.

واللسان العدناني هو الذي نستعمله في الكتابة، وبه جاء الأدب الجاهلي، ولم يأتنا أدب بلسان حمير. وكانت مكة بما لها من تأثير ديني وتجاري، مجتمعاً للقبائل العربية، على اختلاف لغاتها، وكانت تقام الأسواق في عكاظ وغيرها، فنشأت عن طريق هذا الاتصال المباشر وغير المباشر لغة أدبية مهذبة عُرفت بلغة قريش، كما أخذ العرب ألفاظاً من اللغات الأعجمية وعربوه ليسدوا به ثلمة لغتهم، وهذه الألفاظ الدخيلة على اللغة أُخذت في الغالب من الفارسية والرومية والهندية، وأكثرها يختص بالأدوات والمنسوجات والشجر والعقاقير، ومن العبرانية والسريانية والحبشية، ولا سيما الألفاظ التي لها علاقة بالدين، ومن الطبيعي أن تكون لغة

الجنوب المتحضر أكثر اتساعاً لمعاني الاجتماع والعمران من لغة أهل الوبر في الشمال، غير أنها لم تصل إلينا في جملتها. واللغة الجاهلية قوية التعبير، كثيرة الإيجاز، لا تخلو من خشونة البداوة وغرابة اللفظ، حافلة بضروب الكناية والمجاز، تسلس للشعر والوصف والخطابة.

الكتابة في الجاهلية: غلبت الأمية على العرب في جاهليتهم، ولا سيما عرب البادية، لأن حياتهم الفطرية المضطربة في حدودها السياسية والاجتماعية لم تتسع لصناعة الكتابة التي تنشأ وتزدهر بنشوء الجماعة المنظمة المستقرة. بيد أن سكان الحواضر من أهل اليمن اصطنعوا الكتابة لما هم عليه من استقرار يبعث على التقدم والعمران. وعرب الشمال لم يُحرموا أيضاً فن الكتابة رغم شيوع الأمية فيهم.

الأدب الجاهلي: أدب شفهي نقلي، كُتب له السيرورة والاستمرار بواسطة التداول، فهو يحفظ في الذاكرة لا في الأوراق، حيث تكثر الرواة في العصور الشفهية فتقوم مقام الكتب والدفاتر. وكان لكل شاعر في الجاهلية راوية أو أكثر، يحفظ شِعره ويرويه للناس، وعن طريق الرواية دُوِّن الأدب الجاهلي، بعد ما شاعت الكتابة في العصور اللاحقة، ولكنه لم يصل إلينا سالماً، فقد ضاع منه شيء كثيرٌ لم ينقله الرواة،

أو ضاعت روايته؛ كما دخل عليه نُحل كثيرة، لأسباب عديدة منها المنافسات القبلية، ومنافسات الرواة في الحفظ، وحرصهم على التكسب والحظوة به. والأدب الجاهلي في معظمه قائم على الشعر، لأن أكثر ما وصل إلينا من النثر مشكوك بأمره، هذا فضلاً على أن مادته غير كافية للدرس، هذا مع العلم أن لغة النثر في الشعوب البدائية تكون محاكية لغة الشعر في مجازها وخيالها وموسيقى ألفاظها. والشعر في أول أمره لم يكن إلّا أشطراً لا ضابط لها، يرتبها البدوي على هواه ويتغنى بها ويحدو إبله. ومن طبع الإنسان أن يميل إلى الغناء في حزنه وسروره، في خوفه وأمنه، في راحته وتعبه. ولعل السجع الذي كان ينطق به كاهن القبيلة وشاعرها هو المظهر الفني الأول للأدب العربي، بل هو المادة المشتركة بين الشعر والنثر. ثم أخذ الشعر بعد ذلك ينفرد بأوزانه وقوافيه، ويتفق الرواة على أن عهد المهلهل وامرىء القيس هو عهد ازدهار الشعر، وظهور القصائد الطويلة واستقرار الأسلوب التقليدي. لأن بدء تاريخ النهضة غير معروف وذلك لضياع الآثار التي وجدت قبل الشطر الأخير من القرن الخامس، ويتفق المؤرخون الاقدمون على أن الشعر نهض أولاً في ربيعة، ثم تحول في قيس عيلان، ثم صار زمن النبوة إلى قريش والانصار بعامل الحروب التي حدثت بين

المسلمين الأوائل والمشركين. وهكذا لبث الشعر طوال العصر الجاهلي محصوراً في البادية لا يتنفس خارج الجزيرة إلا بشعراء منها يقصدون الشام أو العراق لمدح الغساسنة والمناذرة، ولم يُعرف في الحيرة غير شاعر واحد هو عدي بن زيد، وأصله من عرب الجزيرة وعلى وجه التحديد من تميم.

الشعر الجاهلي

ميزة الشعر الجاهلي: إذا ما أمعنا النظر في الشعر الجاهلي تبين لنا أن له أبواباً رئيسية مستقلة، هي: الفخر والحماسة، والمدح، والهجاء، والرثاء؛ وأغراضاً إضافية غير مستقلة وإنما تأتي عَرَضاً أو بشكل ثانوي، كالغزل، والطبيعة، والخمريات، والحِكم والمواعظ.

ولكن الوصف أعظم ركن يعتمد عليه الشاعر في مختلف أبوابه وأغراضه، لما له من عين نافذة متيقظة شديدة الملاحظة دقيقة المراقبة، متنبهة لكل ما يحيط بها وما يدور حولها؛ فإذا أراد الشاعر منهم أن يصف شيئاً ما، أحاط بالموصُوف من أظهر نواحيه، أو أحاط بناحية منه يطلبها دون غيرها، مشبعاً موصوفه على الحالين، مخرجاً عنه صوراً حسية رابية الملمس تنقله أحياناً نقلاً آلياً مهذباً، وتخلقه حيناً خلقاً شعرياً ذكياً. والشاعر لا يصف إلا ما يؤثر في نفسه مما يعايشه ويسمعه ويراه، أو مما يتوهمه فيحسه وتنطبع له صورة بليغة في خياله.

ثم يخرج من الوصف إلى قصص قصيرة يحدِّث بها عن

مغامراته الغرامية، أو عن معاركه وغزواته، أو يروي شيئاً من الأخبار والأساطير مما انتقل إليهم من الشعوب المجاورة، أو ممن نشأ في باديتهم.

ولكن خيال الجاهلي لم يتسع للملاحم والقصص الطويلة لانحصاره في بادية متشابهة الصور، محدودة المناظر من جهة، ثمَّ لمادِّيتهم وكثافة روحانيتهم، ولفرديتهم وضعف الروح القومية والاجتماعية فيهم من جهة أخرى. أضف إلى ذلك كله قلة شأن الدين في نفوسهم وقصر نظرهم عما وراء الطبيعة، ولهذا ترى الجاهلي منهم لم يلتفت إلى أبعد من ذاته المحدودة، ولا إلى عالم غير العالم المنظور، ولهذا لم تتولد عندهم الأساطير الخصيبة كما تولدت عند غيرهم من الشعوب البدائية. كما لم يكن لأصنامهم من الفن والجمال والإبداع والإيحاء الروحي والنفسي ما يبعث الوحي في النفوس شأن أصنام اليونان والرومان مثلاً؛ فقليل منهم من ذكر أوثانه أو استوحاها من شعره، كما أن مجتمعهم لم يساعدهم على التأمل الطويل وربط الأفكار وبُعدِ آفاق الخيال، وذلك لاضطراب حياتهم برحيلهم المستمر وبتنقلهم الدائم، فجاء نَفَسهم قصيراً كإقامتهم، وخيالهم متقطعاً كحياتهم، صافياً واضحاً كسمائهم وسطوع أنوار شمسهم، قريب التصور، داني الفكرة، محدود الألوان لطبيعة

صحرائهم. وكانت ثقافتهم الأدبية فطرية خالصة يتغذى بعضها من بعض. وجاءت حروبهم وغزواتهم محدودة الأثر لا تتجاوز البادية والقبيلة، فلم يكن من شأنها أن تبدع ملحمة كملحمة هوميروس في حضارة طروادة. فلهذه الأسباب مجتمعة اقتصر شعرهم على أغراض وجدانية تغمرها الذكريات، متبورة القصص، يتواطأون عليها بأسلوب متشابه الاتجاه متداول المعاني والتعابير، فيستهلون على الغالب، ولا سيما القصائد الطوال، بذكر الديار الخالية، والوقوف على الأطلال للبكاء أو للتحية والسؤال، معددين المواضع التي توصل إليها أو تحيط بها، متشوقين إلى أحبتهم يوم كانوا يعمرونها، مشببين بهم مستعيدين ذكرى فراقهم. ثم يرحلون بعد ذلك على ناقتهم مفرجين بها همهم، قاصدين الحبيبة أو الممدوح، فيصفونها عضواً عضواً بدقة متناهية، ويصورون سرعتها ونشاطها ثم ينتقلون إلى المدح أو الفخر أو غير ذلك من الأغراض الشعرية، فيجتمع لهم في قصيدة واحدة عدة أغراض، ويكون انتقالهم من غرض شعري إلى غرض آخر في أكثر الأحيان اقتضاباً ووثباً، أو بواسطة كلمة أو جملة كأن يقول مثلاً دَعْ ذا أو عُدّ عن ذا. والجاهلي صادق في الكلام عن حياته وأحواله ومجتمعه، صادق في مدحه وهجائه إلى حد لا يسلم معه من الغلو، ولكنه كاذب في كثير من مفاخره،

مغالٍ إلى حد الافراط في مراثيه؛ ولغة الشعر الجاهلي قوية المدلول في ألفاظها الوضعية، سواء كان التعبير حقيقياً أو مجازاً، خشنة، كثيرة الغريب، وهي إلى ذلك متوافرة الصور في تشابيهها الحسية وما يختلف إليها من استعارات وكنايات قليلة الاحتفال بأنواع البديع؛ جارية مع الطبع بريئة من التكلف، فقوة الشعور الفني وحدها هي التي تهدي الجاهلي إلى اختيار ألفاظه واخراجها من معدن واحد، فتأتي محكمة التركيب متماسكة، تعبِّر بتموُّجاتها وأجراسها أصدق تعبير عن الحالة التي يحسها في نفسه ويتصورها في خياله.

وفي تشابيهه وكناياته واستعاراته دلالات بينه على حياته وطبيعة أرضه، فأكثرها مستمدة من الصحراء، نباتها وحيوانها، ومن مرافقها المحدودة ومعيشة أهلها، ومن عاداتهم وعقائدهم وأساطيرهم. وقد ينحط إلى تشابيه ننكرها في زماننا، ولا تستنكرها فطرته، كتشبيه امرىء القيس أصابع محبوبته بالأساريع[١]. وتشبيه طرفة نفسه بالبعير المعبد[٢]. وكانوا من عادتهم إذا شبهوا، يتركون المشبه وينصرفون إلى المشبه به، ليصفوه وصفاً دقيقاً، ومن المأنوس في شعرهم

(١) الاساريع: دود أبيض الابدان، أحمر الرؤوس، مفردها أسروع ووجه الشبه بياض الاصابع وطراوتها وحمرة أطرافها بالخضاب.

(٢) أي الجمل المطلي بالقطران لجربه.

نداء الصاحب والصاحبين، والاستفتاح بألاً، وإدخال ولقد و واو ربَّ، والقسم بلعمري، كما أن معانيهم لا تخلو من غموض، ويعود ذلك إلى غرابة الألفاظ وما فيها من ايجاز وحذف، أو لما تتضمنه من تلميحات إلى حوادث تاريخية، أو إلى عقائدهم وعاداتهم مما لا تُدرك مقاصده إلا بمعرفة حياتهم وأخبارهم. ولكن الغموض الفني فقليل عندهم لمادية ألفاظهم، وبعدها عن الرمز والتصوف؛ ثم لضعف روحانيتهم، وضيق خيالهم، ودنو تصورهم وعنايتهم بسرد الأخبار وإظهار الحقائق المحسوسة، واعتمادهم على الأساليب الخطابية الواضحة والحكم والامثال البديهية.

وجاءنا عنهم من الاوزان خمسة عشر بحراً ضبطها الخليل بن أحمد الفراهيدي، وزاد عليها تلميذه الأخفش بحر الخبب أو المتدارك؛ وأكثر ما نظموا على الأبحر الكثيرة التفاعيل، كالطويل والبسيط والكامل، ثم على الأبحر اللينة التي تصلح للأغراض الوجدانية العاطفية، كالوافر والرمل والخفيف. كما لم يخلُ شعرهم من زحاف[1] مستكره نستقبحه اليوم ونأبى استعماله. وأمّا مَنْظُومهم فهو قصيد ورجز، وأراجيزهم في الغالب قصيرة، وهي مثل قصائدهم

(١) الزحاف: تغير يحدث في حشو البيت غالباً وهو أنواع.

تجري على قافية واحدة ووزن واحد. ويستحسن عندهم تصريع المطلع أو تقفيته. ولا تعوزهم سلامة الطبع التي ترشدهم إلى اختيار القافية الملائمة للبيت في معناه ولفظه. ولكنها لم تخلص من عيوب مذمومة كالاقواء[١]، والاكفاء[٢]، وأنواع أخرى مكروهة من السناد[٣]. وبيت الشعر عندهم صورة لتقطع أفكارهم وخيالاتهم، يستقل بمعناه ولا يتعلق بما يليه، وهذا الاستقلال جعل القصيدة عرضة للتشويش في مواضع جمة، يحذف منها ولا يُحَسُّ نقصانها ويُبدَّل ترتيب أبياتها ولا يظهر خلل فيها.

على أن الشعر الجاهلي المستقل ببيته، لا ببنيانه يرتفع احياناً إلى غاية الجمال، وهو في الجملة أخلص الشعر القديم جوهراً، وأصدقه شعوراً وتعبيراً وايحاء، يأتي به الشاعر بقوة الاحساس الفني، على فطرته وسجيته وصفاء نفسه، بالاضافة إلى ما فيه من بداوة ووحشية وخشونة.

---

(١) الاقواء: اختلاف إعراب القوافي.

(٢) الاكفاء: اختلاف الحروف في الروي.

(٣) السناد: كل عيب يحدث قبل الروي.

صدر الاسلام

٦٢٢ ــ ٧٥٠ م

١ ـ ١٣٢ هـ

لمحة تاريخية

النبي محمد ﷺ والدعوة الاسلامية: وُلِدَ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشِمِي القُرَشي في مكة سنة ٥٧٠ م وهو عام الفيل عندما هاجم الأحباش الكعبة بقيادة أبرهة الأشرم، أُمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف من قريش، توفى والده قبل أن يولد، ولم يترك له ولأمِه من المال إلاَّ خمسة من الإبل، وقطيعاً من الغنم وجارية[١]. فكفله جَدُّهُ عبد المطلب. ثم ما لبثت أمه أن ماتت وهو فتىً رضيع، ومات جدّه عبد المطلب، فكفله عمه أبو طالب والد علي (كرم الله وجهه)، وكان قليل المال كثير العيال. فنشأ محمدٌ ﷺ يتيماً في كنف عمِّه، حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره تزوج خديجة بنت خُوَيْلد، وهي في الأربعين من عمرها،

---

(١) هي أم أيمن حاضنة النبي.

وكانت من أغنياء قريش واشرافهم، فأمدته بمالها فأيسر واتسعت حاله.

وكان محمد ﷺ يميل إلى العُزلة، ويذهب إلى غارٍ قرب مكة يُدعى غار حِرَاء فينفرد فيه مفكراً بأحوال قومه ومتعبداً. وبينما هو نائم ذات ليلة في الغار، نزل عليه الوحيُّ، وكان قد بلغ الأربعين، فأخبر زوجته خديجة بما سمع ورأى، فسارعت إلى قبول دعوته، ثم تبعه بعدها ابن عمه علي بن أبي طالب وكان لا يزل فتىً حدثاً، ثم صديقه أبو بكر.

ولكن قومه أنكروا دعوته، وسخروا منه وقالوا: «ساحرٌ أو مجنون». ثم أخذوا يضطهدونه وأتباعه، ولما يئس منهم، حوَّلَ وجهه شطر الطائف[1] ودعا أهلها، فإذا هم أقسى من قريش، وأَغْروا به سفاءهم فرجموه بالحجارة. ثم علم أن قومه يريدون الايقاع به، فهاجر من مكة إلى يثرب مستخفياً، فلقي في يثرب من أهلها قبيلتي الأوس والخزرج اتباعاً يناصرونه فسُمّوا «الأنصار» كما سُمِّيَ الذين هاجروا مع النبي «المهاجرين» وسَميت يثرب «المدينة» أي مدينة الرسول. ومن ذاك التاريخ يتبدىء التاريخ الهجري، أي سنة ٦٢٢ م.

وساءَ القُرَشِيون أن ينجوَ النبيُّ ويحتمي في يثرب، وان

---

(١) الطائف: بلدة في الحجاز كانت لبني ثقيف.

يلاقي هناك أنصاراً وأعواناً، فناصبوا أهلها العداء، وقابلهم هؤلاء بالمثل، فقطعوا الطرق على قوافلهم، وابتدأت الغزوات يتبع بعضها بعضاً، وكان النصر في أكثر هذه الغزوات حَليف المسلمين، حتى فُتَّ أخيراً في عَضُد المشركين، فغزا النبي مكة بعشرة آلاف مقاتل فافتتحها سلماً سنة ٦٣٠ م أو ٩ هـ. ووقعت قريش في يده، فأمنهم وأسلموا عن بكرة أبيهم، ثم دخل الكعبة وأزال منها الأصنام والصور والتماثيل، وأخذ العرب يدخلون في الإسلام أفواجاً بعد أن أسلمت قريش وذلك لزعامتها بين القبائل، فتم النصر للنبي ، وبذلك بنى حجر الزاوية في الوحدة العربية الاسلامية، والتي ظل يسوسها حتى قُبض يوم الاثنين في ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ. أو ٨ حزيران سنة ٦٣٢ م، وكانت وفاته بالمدينة وفيها قُبر.

هذا ما كان من أمر النبي ﷺ والدعوة الاسلامية، والتي كان كعب في مقتبل الشباب عند ظهورها واشتهار أمرها.

كعب بن زهير

٦٤٥ م - ٢٦ هـ

وكعب بن زهير واحد من أبناء هذه البيئة الصحراوية وأحد شعرائها البارزين، عاش شطراً من حياته في الجاهليـة، وعاش الشطر الباقي في الاسلام، فهو بالتالي أحد الشعراء المخضرمين[1]، وقد رأينا مميزات وطبيعة العصر الجاهلي، وألقينا نظرة على خصائص ومميزات الشعر في هذا العصر، ونرى الآن أن نُلقي الضوء على طبيعة وخصائص ومميزات الشعر المخضرم، لكي نُعطي فكرة واضحة عن الشعر عند الشعراء المخضرمين بصورة عامة وعند كعب بن زهير بصورة خاصة، ولنعلم نقاط الاتفاق والافتراق بين شعر هؤلاء وشعر العصر الجاهلي.

مميزات الشعر المخضرم: إننا لا نجد فرقاً بين الشعر الجاهلي والشعر المخضرم من حيث الايجاز وقوة التعبير، وطريقة النظم، وتعدد الموضوعات، وبراعة الوصف إلى غير

---

(١) الشاعر المخضرم: هو الذي عاش في عصرين مختلفين.

ذلك مما مرَّ بنا أثناء كلامنا عن الشعر الجاهلي، لأن الشعر المخضرم جاهلي في أصله.

إلاَّ أننا نجد فيه خصائص جديدة، أهمها تطور اللغة، ورقة اللفظ، ووضوح المعنى، كما يمتاز بتلك النفحة الدينية التي نفحه بها الإسلام بعد ظهوره، فأصبحنا لا نرى فيه يأساً من الحياة، وتبرماً بمصيرها شأن الشعر الجاهلي، بل تلمس به ارتياحاً شديداً إلى نعيم الآخرة، إلى الجَنَّة التي وعد بها الله عباده المتقين. كما اكتسبت اللغة عموماً، والشعر المخضرم خصوصاً تعابير جديدة من القرآن، وألفاظاً لم تكن مألوفة من قبل، كالجنة والنار، والكفر والإيمان، والصلاة والزكاة، الركوع، والوضوء، إلى ما هنالك من الالفاظ والتعابير التي ظهرت بظهور الدين الجديد، ورغم أن هذه الالفاظ كانت معروفة في الجاهلية، ولكنها في أكثرها لم تكن تدل على معانيها المستحدثة في الإسلام، كما اكتسب الشعر نوعاً جديداً وهو الهجاء السياسي، هجاءُ مُرٌّ مقذع أليم. جرى بين شعراء الرسول ﷺ وشعراء قريش والاحزاب.

على أن الشعر أصيب بفتور بعد وفاة الرسول ﷺ، فلم يجد من الخلفاء الراشدين من يشجعه، بل ربما نهوا عنه، وزجروا الشعراء، بيد أن هذا الفتور لا يعني أن الشعر قد

خمدت ناره، وانطفأ أواره، فقد بقي في الشعراء طائفة لم تنصرف عنه، إلا أنه لم يكن له ذلك الازدهار الذي عرفه في الجاهلية أو في حياة الرسولﷺ. عندما أنكرت قريش عليه دعوته وحاربته مدة تزيد على ثماني سنوات بعد هجرته إلى المدينة، ولم تقتصر الحرب بينهم على السيف وحده، بل كان للشعر فيها شأن كبير. فأخذ شعراء قريش واحزابها يهجون الرسول ﷺ هجاءً مرّاً، ويسفهون رسالته، ويسخرون منها، ويعيرون تابعيه من الانصار والمهاجرين، مما اضطرّ الرسول ﷺ أن يحاربهم بسلاحهم، لما يعلمه ما للشعر من التأثير في نفوس القبائل العربية، فأرسل عليهم ثلاثة من شعراء الانصار وهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وقد أغنت هذه الملاحيات الشعر فنهض نهضة عظيمة، وغزرت مادته وكثر القول بكثرة الشعراء، ولا سيما شعراء قريش، وكانت قبلاً لا تُذكر مع القبائل في الشعر، وبرز من شعرائها أربعة هاجوا الرسول ﷺ وقاوموا شعراءه وهم: عبد الله بن الزِّبعري، وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص، وضرار بن الخطاب. ولكن لم يصل إلينا من شعرهم إلاّ شيءٌ يسير ليس فيه غناء، ولا عجب أن تُطمس أشعارهم واشعار غيرهم من الشعراء الذين ناصبوا الرسول ﷺ العداء، خصوصاً بعد أن

دخلت قريش في الإسلام، وساد الإسلام الجزيرة العربية، ولا يكاد يُذكر الرسول ﷺ إلا ويذكر معه كعب بن زهير ولاميته الشهيرة التي اعتذر بها إليه يوم اسلامه.

هويته وحياته: هو كعب بن زهير بن أبي سُلمى المُزْني، والده شاعر كبير من شعراء الجاهلية التي طبقت شهرته الآفاق، وقد نشأ كعب في بيئة شعرية صرفه، إذ لم يجتمع في الجاهلية حظٌ من الشعر كما اجتمع لأبيه زهير بن أبي سُلمى، فقد كان أبوه ربيعة شاعراً، وخاله بَشامة بن الغدير الغطفاني شاعراً، وأختاه سُلمى والخنساء[1] شاعرتين، وابناه كعب وبُجير شاعرين، وحفيده عقبة بن كعب الملقب بالمضرِّب شاعراً، وابن حفيده العوَّام بن عقبة شاعراً مشهوراً روى له زهير ونظم الشعر ففاقه، وأخمل ذكره، في مثل هذه البيئة الشعرية نشأ وترعرع كعب وأخوه بُجيرٌ، فأبوه هو أحد الثلاثة المقدمين في الجاهلية وهم: امروء القيس، والنابغة، وزهير، وقد أختلف في تقديم أحدهم على صاحبه، أقام والده زهير في بني مُرَّة معززاً مكرماً مسموع الكلمة، وكثر ماله وتزوج امرأة منهم تُكنَّى أم أوفى، ثم ما لبث أن جمع بينها وبين ضرَّة يقال لها كبشة بنت عمَّار من قبيلة غطفان،

(١) الخنساء: هنا غير الخنساء أخت صخر الشاعرة المشهورة.

فولدت له كعباً وبجيراً. نعم هذا هو البيت الذي نشأ فيه كعب، فنشأت معه ملكة الشعر فما كاد يترعرع حتى نظمه، ولكن والده زجره عنه وضربه مخافة أن تكون شاعريته لم تكتمل بعد، فيُرْوى له من الشعر ما لا خير فيه. على أن الزجر والضرب لم يمنعا كعباً عن قول الشعر، فلبث يقوله غير مرتدع حتى ضاق والده ذرعاً به، فأردفه[١] خلفه على ناقته وانطلق به إلى الصحراء، وأخذ يقول البيت، ويطلب إلى كعب أن يكمله، فلا يتوانى كعب عن اكماله، ويجيزه على أحسن وجه؛ فوثق أبوه عندئذٍ بنضوج ملكته الشعرية، وأذن له بقول الشعر. فكان من المبرّزين حتى أن الحطيئة وهو فن في ميزان الشعر، رجاه أن يذكره في شعره قائلاً له: يا كعب قد علمت روايتي لكم أهل البيت[٢]وانقطاعي إليكم، وقد ذهب الفحولُ غيري وغيرك فلو قُلتَ شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك... فأن الناس لأشعاركم أروَى وإليها أسرع، فقال كعب:

فَمَن للقــوافي شــأْنُهـا من يحـوكُهـا
إذا مـا ثوى[٣] كعبٌ وفَـوَّز[٤]جَرْوَلُ[٥]

---

(١) أركبه خلفه على الراحلة

(٢) كان الحُطيئة راوية زهير وآل زهير.

(٣) مات. (٤) هلك، مات. (٥) جَرول: لقب الحطيئة.

يقـولُ فـلا تعبـأ[1] بشـيءٍ تَقُـولُـهُ
وَمِنْ قَـائليهـا مَنْ يُسِيءُ ويَـعْجَـلُ
كفيتُـكَ لا تَلقَى من النـاسِ واحـداً
تَنَحَّـلَ[2] منهـا مِثْـلَ مـا يتـنحَّـلُ
يُـثَقِّفُهَـا[3] حـتى تـلينَ مُـتُـونُـهَـا
فـيقـصِـرُ عنهـا كـلُّ مـا يَتَـمثَّـلُ

ومما يدل على قوة موهبته منذ صغره، ما ذكره صاحب الأغاني قال: قال زهيرٌ بيتاً ونصفاً ثم أكدى[4]، فمرَّ به النابغة فقال له: أبا أمامة[5] أجِزْ. فقال: وما قلت؟ قال: قلتُ

تَـزيـدُ الأرضَ إمـا مُـتَّ خـفـاً
وتَـحيـا إن حَـيِيتَ بِـهَـا ثَـقِـيـلا
نَـزَلْـتَ بِمُـستَـقَـرِ العَـرضِ مـنـهـا
....

أجِزْ. قال، فأكدى والله النابغة. وأقبل كعبُ بن زهير ـ وإنه لغلام ـ فقال أبوه: أجِزْ يا بني. فقال: وما أُجيـز؟

(١) تهتم.
(٢) اختار.
(٣) يهذبها.
(٤) عجز عن إتمامها.
(٥) كنية النابغة.

فأنشدهُ، فأجاز النصف بيتٍ فقال: «وتمنعُ جانِبَيْها أن يَزولا» فضمَّه زهير إليه وقال: أشهد أنك ابني.

وبعدما أذن له أبوه بقول الشعر، عاد إلى أهله وهو صغير يومئذٍ وهو يقول:

أبيتُ فلا أَهْجُو الصديقَ ومَنْ يبِعْ
بِعِرْضِ أبيه في المعاشِرِ يَنفُقِ

وكانت هذه أول قصيدة قالها.

كعب في الإسلام: لم يحدثنا الرواة كثيراً عن حياة كعب، فنحن لا نكاد نعلم عنها ما يستحق الذكر إلّا خبر إسلامه، واعتذاره إلى الرسول ﷺ بقصيدته الشهيرة والتي مطلعها: «بانت سعادُ». وذلك أن بُجيراً أخا كعب وفد إلى النبي ﷺ في أواخر السنة السابعة للهجرة فأسلم، ووصل خبر اسلامه إلى أخيه كعب، فاستاء كعب من عمل أخيه، وقال فيه أبياتاً يؤنبه على فعلته هذه ويحثه على الارتداد عن الإسلام:

ألا أبلغا عني بُجيراً رسالةً
فهل لكَ في ما قلتَ، ويحك، هل لكا[1]

(١) فهل لك في ما قلت: أي هل ما قلته وتلفظت به كان بمحض إرادتك؟

سقـاك بهـا المـأمـون كـأسـاً رَوِّيـةً
فـأنـهلَكَ المـأمـون منهـا وَعُلكـا[1]
فـفـارقت أسبـابَ الـهُـدَى واتَّبـعَتـه
على أيْ شيءٍ وَيْـبَ غيـرِكِ، دلَّكـا[2]
عـلى مَـذْهـبٍ لـم تُـلفِ أُماً ولا أباً
عليـه، ولم تَعـرِفْ عليـه أخـاً لَكَـا[3]
فـإن أنـتَ لم تَـفْعَـلْ فـلستُ بـآسِفٍ
ولا قـائـلٍ إمَّـا عَثَـرْتَ: لعـاً لكـا[4]

ويرى الدكتور طه حسين مستخلصاً من هذه الأبيات، أن بجيراً وأخاه كانا قد ائتمرا بالنبي، وأن بجيراً كان قد سبق إلى محضر النبي، ليؤذيه ويسؤه، حتى إذا انتهى إليه آمن واهتدى كغيره من الذين سعوا إلى النبي يريدون به السوء، فلم يجدوا عنده إلاّ هدىً ورحمةً ونوراً. واستبطأ كعب أخاه، وعرف من أمره ما عرف[5]، أو أنه شك في أمر اسلامه، فقال هذا

(١) سقاك بها: أي بالشهادة. المأمون: أحد أسماء النبي. روية: تامة مفعمة. أنهلك: من النهل وهو أول الشرب. علَّك: سقاك تباعاً، أي سقاك فأرواك. وجاء في بعض الروايات سقاك بها المأمور.
(٢) أسباب: طرق. ويب: دعاء عليه أي هلكت هلاك غيرك من تابعيه.
(٣) لم تلفِ: لم تجد.
(٤) لم تفعل: لم ترد. لعاً لك: وهو دعاء للعاثر بالسلامة: أي ان أنتَ لم ترجع عما فعلته فلا أسفٌ عليكَ، ولا قامتْ لك قائمة.
(٥) أي علم خبر إسلامه.

الشعر، والدليل على ذلك هو البيت الأول الذي يروى على نحو يؤيد هذا المذهب والذي يقول:

فَهَلْ لَكَ فيما قُلْتَ بالخيف هَلْ لكا.

فالذي يُفهم من هذا القول أنه كان قد قال شيئاً بهذا المكان الذي يدعى «بالخيف» وها هو كعب يذكره به، ويحرضه عليه، ويستبطئه في إنفاذ ما قال، كما أن البيت الأخير أيضاً صريح في هذا:

فإن أنت لم تفعل فلستُ بآسفٍ
ولا قائلٍ إما عَثَرْتَ لعاً لكا

وعلى هذا النحو يفهم إيعاد النبي لكعب وإهدار دمه، فقد كان كعب والحالة هذه يلهج بالنبي ويحرض عليه، ويدس إلى محضره من يناله بالمكروه، ثم هو فوق هذا وذاك يقول الشعر كما كان يقوله غيره من شعراء العرب الذين كانت تأجرهم قريش لذم النبي والإغراء به.

حتى إذا انتصر النبي في مكة وحنين، وأذعن العرب كلهم لسلطانه الجديد، وقُتل من قُتل بعد الفتح من خصوم الإسلام واعداء النبي ، وفرار من فر، كل ذلك قد ملأ كعباً فزعاً ورعباً، وقد حاول كعب الفرار والاستخفاء، ولكن الأرض ضاقت به، والناس تخاذلوا عنه، حتى أن قبيلته أبت حمايته،

ونظر فإذا هو مأخوذ فهـالك إذا لم يحتط لنفسه، وجاءته في اثناء هذا كله رسالة أخيه يحثه على الاسراع في القدوم إلى النبي مسلماً معتذراً، وبأن النبي رؤوف رحيم يأخذ العفو، ويأمر بالعرف، ويعرض عن الجاهلين، ولا يعاقب تائباً بما قدم قبل أن يتوب، وأخيراً استقرت عزيمة كعب على أن يستجير بعفو النبي من غضب النبي، وانطلق حتى بلغ المدينة سنة ٩ هـ ٦٣٠ م، فأوى إلى رجل من جهينة، فيما يقول بعض الرواة، كما يقول بعضهم الآخر أنه أوى إلى أبي بكر رضي الله عنه، فلما صُلِيتْ الصبح، أقبل أبو بكر ومعه كعب، وقد تلثم حتى استخفى وجهه، فلما انتهيا إلى النبي، قال أبو بكر: هذا رجل يريد أن يبايعك على الاسلام، فبسط النبي يده فبايعه كعب وأسلم، ثم ما لبث أن حسر اللثام عن وجهه، وقال: هذا مكان العائذ(١) بك يا رسول الله، أنا كعب بن زهير. وهم الانصار به، فوثب رجل منهم وهو يقول: دعني يا نبيَّ الله أضرب عنقه، ولكنه ﷺ ردهم عنه قائلاً: وكيف وقد أتاني مسلماً؟! أما المهاجرون فقد كفوا عنه واحبوا إسلامه ولم يقولوا شيئاً. وهكذا بايع كعب النبي، واتخذه له جاراً، ويقال أن النبي استنشد أبا بكر هذه الأبيات التي مرت آنفاً، فأنشده إياها، فلما بلغ قوله:

---

(١) العائذ: المستجير.

فأَنْهَلكَ المَأْمُورُ منْها وعَلَّكا.

قال كعب: لم أقل المأمور يا رسول الله، وإنما قلت المأمون. فقال النبي مأمون والله، ورضي عن كعب، الذي قام فأنشده قصيدته الرائعة:

بـانَتْ[١] سُعادُ فقلبي اليَـوْمَ متْبُـولُ[٢]
مُتَيَّمٌ[٣] إثْـرَهـا لم يُفْـدَ[٤] مكـبُـولُ[٥]

ويقال إنه ظلّ ينشد حتى إذا انتهى إلى مدح قريش، أومأ النبي إلى الناس أن اسمعوا، فلما بلغ من هذا المدح أروعه وأجمله، أومأ النبي إلى المهاجرين أن اسمعوا، ولكن كعباً عرَّض بالانصار فيما يقول الرواة، فغضب المهاجرون وقالوا: ما مدحنا الذي هجا الانصار، ويقال أن النبي نفسه غضب أيضاً، وذلك بقوله:

---

(١) بانت: بعدت، وفارقت.
(٢) متبُولُ: أي تبله الحب، اسقمه وأضناه.
(٣) متيم: مذلل بالحب.
(٤) لم يفد: لم يجد من يفديه، فهو لم يزل مأسور.
(٥) مكبول: اسير مقيد.
يقول: ان الحب ذلل قلبه واسقمه ورماه بالأسر ولم يجد من يفديه.

كـانتْ مـواعيـدُ عُـرقـوبٍ لهـا مثـلاً
وما مـواعـيـدُهـا إلَّا الابـاطـيـل[١]

وعرقوب هذا رجل من الأنصار من يثرب يُضرب به المثل في إخلافه بالوعد، يُقال انه كان صاحب نخل وأنه وعد صديقاً له أن يعطيه تمر نخلة من نخلة. فلما حملت وصارت بلحاً أراد الرجل أن يصرمه، فقال له عرقوب دعْه حتى يشقح أي يحمل ويصفر، فلما شقحت أراد الرجل أن يصرمها، فقال له عرقوب: دعها حتى تصير رُطباً. فلما صارت رُطباً قال: دعه حتى يصير تمراً، فلما صار تمراً انطلق عليه عرقوب فجذّه ليلاً فجاء الرجل بعد أيام فلم يرَ إلا عوداً قائماً، فذهب موعد عرقوب مثلاً.

فاضطر كعب إلى أن يثني على الأنصار في هذه الأبيات الجميلة المشهورة:

مَنْ سـرَّهُ كَـرَمُ الـحـيـاةِ فَـلاَ يَـزل
فـي مِقـنَبٍ مـن صـالحـي الأنـصـار[٢]
الـمُـكْـرِهِـيـنَ الـسَّـمـهـرِيَّ بـأَذْرُعٍ
كـسـوافِـلِ الهـنـدِيِّ غَيْـرِ قِـصَـارِ[٣]

---

(١) الأباطيل: الأكاذيب.

(٢) مقنب: جماعة من الفرسان والخيل دون المائة تجتمع للغارة (ج) مقانب.

(٣) السمهري: السيف. الهندي: السيف.

والبـاذلـيـنَ نُفُـوسَـهـمْ لـنـبِـيِّـهـمْ
لـلْمَـوْتِ يَـوْم تَـعَـانُـقٍ وكـرَارِ[1]
يـتـطهـرُون يـرونـه نُسُـكـاً لـهُـمْ
بِـدِمـاءِ مَنْ عَـلِقُـوا مِـنَ الـكُـفـارِ[2]

وقد أعجبت قصيدة كعب الرسول ﷺ فلم يكتفِ بالعفو عن كعب والاستماعِ له، والإقبال عليه، بل أراد أن يجيزه ويصله، فكساه بردة كـانت له.. وقـد بذل معـاوية بن أبي سفيان لكعب عشرة آلاف درهم فلم يبعها له، فلما مات كعب اشتراها معاوية من ورثته بعشرين ألف درهم، وقيل بثلاثين، وتوارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون، ويقال إنها وصلت إلى سلاطين آل عثمان، وهي البردة التي كان الخلفاء يلبسونها في العيدين.

فقصه اسلام كعب من أولها جميلة رائعة حلوة محببة إلى النفوس حقاً، وسواء أصحت كلها أم لم تصح إلا في جملتها، فإنها تهيء لقصيدة كعب جواً شعرياً ملائماً كل الملاءمة لجمالها وروعتها، وهي تلائم بنوع خاص مكان الممدوح الذي هو الرسول ﷺ، من البأس أول الأمـر،

---

(١) الباذلين: المقدمين.

(٢) يقدم له الهدية والعطية.

فكعب كان يلهج بالنبي ﷺ ويحرض عليه ويأتمر به ليسوءه، وقد اهدر[1] النبي دمه حين أتم له النصر، وحين دانت له العرب، فلما بلغه الوعيد استطير، ولفظته الأرض، وجفاه الناس، ونَبَا عنه الأصدقاء، وخذله النصير، فلجأ من النبي إلى النبي، فوجد عنده حلماً وعفواً كريماً، ثم مدحه فوجد منه إقبالاً عليه واستماعاً له، ثم وجد منه بعد هذا كله كرماً وبذلاً وجوداً، وهذه لعمري هي مكارم أخلاق الانبياء، وحُسن الشمائل والخصال ولنعد إلى القصيدة نفسها لنرى أنها تتألف من أجزاء ثلاثة، فأما أولها: فهو هذا الغزل الذي قصد إليه كعب في أول القصيدة كما تعود الشعراء أن يفعلوا.

وأما الثاني، فهو هذا الوصف الذي انتقل إليه كعب بعد الغزل كما تعود الشعراء أن يفعلوا أيضاً. وأما الثالث: فهو المدح والاعتذار اللذين أُنشئت القصيدة أصلاً من أجلها، وانتهت القصيدة إليهما، ونسمع هذا الغزل فنُحبه ونطمئن إليه، وسنعجب به إعجاباً شديداً، وسنرى فيه أثر أبيه زهير نفسه واضحاً جليّاً، ولكن كعباً قد يطنب[2] حيث يوجز أبوه، ولكن في اطنابه جمال وروعة، لأنه فَصَّلَ كعب حيث لم يُفَصِّلْ أبوه.

---

(١) اهدر دمه: أباح دمه، أمر بقتله.

(٢) يطنب، إطناباً، والاطناب هو كثرة الكلام مع فائدة.

فلما فرغ كعب من مدح النبي ﷺ والمهاجرين، شقّ[1] على الأنصار حيث لم يذكرهم مع إخوانهم ـ وكان رجل منهم قال لرسول الله ﷺ: دعني أضرب عنقه كما أسلفنا ـ فقالوا: «ألا ذكرتنا مع إخواننا من قريش!» فقال يذكرهم. وخاصة بعد ما احتجَّ المهاجرون وقالوا: ما مدحنا الذي هجا الانصار.

مَنْ سرَّه كَرَمُ الحياةِ فلا يَزَلْ
في مُقنَبٍ من صالحي الأنصارِ[2]
تَزِن الجبالَ رَزَانةً أحلامهمْ
وأكفُّهمْ خَلَفٌ من الأمطارِ[3]
المكرِهينَ السَّمْهريَّ بأذرُعٍ
كصوَاقلِ الهنديِّ غير قِصارِ[4]
والناظرينَ بأعيُنٍ مُحْمَرَّةٍ
كالجَمْرِ غير كَليلةِ الإبْصَارِ[5]

---

(١) شق: صعُب عليهم.

(٢) المقنب: الجماعة من الفرسان والخيل تجتمع للغارة.

(٣) أحلامهم: عقولهم. يقول أن عقولهم كبيرة راجحة وأكفهم سخية كريمة.

(٤) السمهري: القنا، الرمح. صواقل الهندي: السيوف القاطعة المنسوبة إلى الهند، لقد شبه أيديهم بالرماح لقوتها، وبسيوف الهند، لمضائها وشدّة قطعها.

(٥) الأعين المحمرة: كناية عن الغضب والغيظ والتشوق للقاء الأعداء. الكليلة: الضعيفة.

والذّائدينَ الناسَ عن أديانهم
بالمَشْرفيِّ وبالقَنَا الخطارِ[1]

والباذلين نفوسَهم لنبيِّهم
يومَ الهِيَاجِ وقُبَّةِ الجبَّارِ[2]

دَرِبوا كما دَرِبَتْ أسُودُ خَفِيَّةٍ
غُلْبُ الرِّقَابِ من الأُسودِ ضواري[3]

وهُمُ إذا خَوَتْ النجومُ فإنهم
للطائفين السائلين مَقَاري[4]

وهم إذا انْقَلَبُوا كأنَّ ثيابَهم
منها تَضَوَّعُ فَأرَة العِطارِ[5]

---

(١) المشرفي: السيف، نسبة إلى قرى من أرض اليمن، وقيل من أرض العرب تدنو من الريف. لسان العرب (٩: ١٧٤).

(٢) الهياج: الحرب. وقبة الجبار: أي بيت الله الحرام.

(٣) دربوا: اعتادوا. من الدربة وهي العادة. خفيَّة: أجمة «غابة» في سواد الكوفة بينها وبين الرحبة بضعة عشر ميلاً، ينسب إليها الأُسود. غلب الرقاب: غلاظها. ضواري: مفترسة.

(٤) خوت النجوم: أي إذا لم يكن لها مطر، المقاري: الذين يقرون الضيوف، أي يقومون بضيافتهم.

(٥) انقلبوا: أي رجعوا. تضوع: تفوح وتنتشر. فأرة العطار: نافجة المسك أي وعاؤه.

والـمُـطْعِمـونَ الـضيْفَ حيـن يَنُـوبُـهم
من لَحْمِ كُـومٍ كـالهضـاب عِشَـارِ[1]
والـمنـعـمـونَ الـمفـضِلُونَ إذا شَتَـوا
والـضـارِبُـونَ عِـلاوةَ الـجَـبَّـارِ[2]
رُمِيَتْ نَـطَاةُ مِنَ الـرَّسُـولِ بِـفَـيْلَقٍ
شَـهْبَـاءَ ذاتِ مـنـاكـبٍ وفـقـارِ[3]
بـالـمُـرْهفـاتِ كـأنَّ لَـمْـعَ ظُبـاتِـهـا
لَمْعُ السَّواري في الصبِّيـرِ السَّاري[4]

---

(١) ينوبهم: يأتيهم، يتنابهم. الكوم، الواحدة منها كوماء: وهي الناقة الضخمة السنام والسنام هو كومة الشحم الموجودة في أعلى ظهر الناقة أو البعير. الهضاب: مفردها هضبة، أرض ترتفع قليلاً عما حولها. العشار، الواحدة منها عشراء: وهي التي أتت عليها عشرة أشهر من حملها، أي حامل في الشهر العاشر.

(٢) شتوا: دخلوا في فصل الشتاء، قال أبو منصور: والعرب تسمِّي القحط شتاءً لأن المجاعات أكثر ما تصيبهم في الشتاء البارد، لأنهم يلتزمون البيوت ولا يخرجون للانتجاع. العلاوة: العنق. الجبار: الشديد القوي.

(٣) نطاة: بالفتح، وآخره تاء مربوطة: هو اسم لأرض خيبر، وقال الزمخشري: نطاة حصن بخيبر، وقيل: عين ماء بقربة من قرى خيبر. الفيلق: الجيش العظيم.

(٤) المرهفات: السيوف. ظباة، مفردها ظبة وهو حَدُ السيف ومضربه. السواري: السحب التي تأتي ليلاً لأن برقها يكون أشد لمعاناً. الصبير: السحاب الأبيض.

لا يَشْتكُونَ الموتَ إن نَزَلتْ بهم
شهباءُ ذاتُ معاقمٍ وأُوَارِ [(١)]
وإذا نَزَلْت ليَمْنعُوك إليهمُ
أصْبحتَ عندَ معاقِلِ الأغْفَارِ [(٢)]
ورثُوا السِّيَادةَ كابِراً عن كابِرٍ
إن الكِرامَ هُمُ بنو الأخْيَارِ [(٣)]
للصُّلْبِ مِنْ غَسَّانَ فوقَ جَرائِمٍ
تَنْبُوا خوالدُهَا عن المِنْقارِ [(٤)]
لو يَعْلَمُ الأحْياءُ عِلمِيَ فيهمُ
حَقّاً لصَدَّقَني الذِين أُقاري

---

(١) الشهباء: الكتيبة من الجيش التي يلمع سلاحها. المعاقم: الهلاك. الأوار: شدة الحرب وضرواتها، ولعله أراد الغبار الذي يثور من وقع حوافر الخيل.

(٢) المعاقل: الحصون، وهي ها هنا أعالي الجبال. الاغفار: الواحد غفر: وهو ولد البقرة وقيل ولد الأرويَّة، ولا يكون إلا في الجبال وقليلاً ما يكون في السهل.

(٣) كابراً عن كابرٍ: أي كبيراً شريفاً عن كبير شريف.

(٤) الصلب: الجدُّ الأعظم. غسَّان: وهو ماء بسدِّ مأرب باليمن وإليه تنسب القبائل المشهورة. الجرائم: أصول الشجر يجتمع إليها التراب فتكون أرفع مما حولها، وقد ضُرب مثلاً للعزو والشرف والمنعة. الخوالد: الجبال. المنقار: آلة حادة تقطع بها الحجارة، أراد أن من رامهم وأراد بهم الشرَّ امتنعوا عليه كما تمتنع رواسخُ الجبالِ على تلك الآلات.

صَـــدَمُـــوا عـــلِيّـــاً يـــومَ بَـــدْرٍ صَـــدمَـــةً
دَانَـــتْ عَـــلِيٌّ بـــعـــدَهـــا لِـــنـــزارِ [1]
يـــتـــطهـــرونَ كـــأَنَّـــهُ نُـــسُـــكٌ لـــهـــم
بـــدِمـــاءِ مـــن عَلِقُـــوا مـــن الـــكُـــفَّـــارِ [2]
وإلـــيـــهـــمُ اســـتَـــقْـــبَـــلْـــتُ كـــلَّ وديـــقـــةٍ
شـــهـــبـــاءَ يَـــشْـــفَـــعُ حَـــرُّهـــا كـــالـــنَّـــارِ [3]
وَمَـــريضَـــةٍ مَـــرَضَ الـــنُّـــعـــاس ذعـــرتُـــهـــا
بـــادَرْتُ عِـــلَّـــةَ نَـــوْمِـــهـــا بِـــغِـــرَارِ [4]
وعـــلمـــتُ أنـــي مُـــضْـــبِـــحٌ بِـــمَـــضـــيـــعـــةٍ
غَـــبْـــرَاءَ تَـــعْـــزِفُ جِـــبُّـــهـــا مـــذكـــارِ [5]

---

(١) وقيل: علي هو علي بن وائل. وقيل علي أخو عبد مناة بن كنانة بن خزيمة من أمه، وفي ذلك أقوال كثيرة والله أعلم. بدر: ماء مشهورة بين مكة والمدينة، وبهذا الماء كانت الوقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام وفرَّقَ بين الحق والباطل في شهر رمضان سنة اثنين للهجرة. دانت: خضعت وذلّت.

(٢) النسك: ما يذبح في الحرم، علقوا: وقعوا في الشباك، وعلق الشيء علقاً لزمه، وعلقت نفسه الشيء: لهجت به.

(٣) الوديقة: شدة الحر. يسفع: يلفح الوجوه.

(٤) يقول: لم أترك ناقتي تنام إنما بادرتها بالرحيل. والغرار: قلة النوم.

(٥) المضيعة: القفر الخالي. غبراء: إشارة إلى جدبها وقلّة خيرها. تعزف تُصوِّت. المذكار: ذات هول وفزع، وقيل: التي لا يسلكها إلا الذكور من الرجال.

وَكَسَوْتُ كاهِلَ حُرَّةٍ منهوكةٍ
بالفَجْرِ حَارِيّاً عَدِيمَ شِوَارِ [١]
سَلِسَتْ عَرَاقيهِ فَكَلُّ قَبِيلَةٍ
من حِنْوِهِ قَلِقَتْ إلى مِسْمَارِ [٢]
وَسَدَتْ مُهَمْلِجَةٌ عُلالَةَ مُدْمجٍ
من فالِقٍ حَصَدٍ من الإمْرارِ [٣]
حتى إذا اكْتَسَتِ الأبارِقُ نُقْبَةً
مِثْلَ المُلاءِ مِنَ السَّرابِ الجاري [٤]
وَرَضِيتُ عنها بالرِّضا لمّا أتتْ
من دُونِ عُسْرَةِ ضِغْنِها بِيَسارِ [٥]

---

(١) المنهوكة: التي أجهدها السير. الحاري: المنسوب إلى الحيرة. عديم شوار: أي تخرّق ما عليه من ثياب وغيره لطول السفر، وقال بعضهم: «عديم شوار» أي رحل لا نظير له.

(٢) سلست: قويت واستحكمت. العراقي: العيدان في مؤخرة الرحل. الحنو: خشب الرحل.

(٣) المهلجة: ضرب من العدو. العُلالة: بقية كل شيء. المدمج: السوط. من فالق: يعني سوطاً من فيلق العنق. الحصد: الشديد الفتل وكذلك الإمرار فهو إحكام الفتل وشدّه.

(٤) الأبارق، الواحد أبرق: مرتفع من الأرض غليظ كثير الحجارة والطين. النقبة: ستار من السّراب. الملاء: ثوب يلبس على الفخذين. الجاري: المترقرق.

(٥) والضغن: الاشتياق إلى الوطن. اليسار: اليسر واللين. أراد أنها كانت

تَـنْجُـو بهـا عَـنَقٌ كِنَـازٌ لَـحْمُـهـا
حَـفَـزَت فـقـاراً لاحـقـاً بـفـقـارِ[١]

في كـاهِـلٍ وَشَـجَـتْ إلى أطبـاقِـهِ
دَأْيـاتُ مُـنـتـفـخٍ مـن الأزوارِ[٢]

وَتُـدِيـرُ لـلخَـرْقِ الـبـعـيـد نـيـاطُـه
بَعْـدَ الكَـلاَلِ وَبَعْـدَ نَـوْمِ السَّـاري[٣]

عـيـنـاً كـمـرآة الـصَّـنـاع تُـديـرهـا
بـأنـامـل الـكـفَّـيـن كـلّ مُـدارِ[٤]

بجمـال محجـرهـا وتعلم مـا الـذي
تـبـدي نـظره زوجـهـا وتـواري[٥]

= تتباطأ في سيرها لأنها تسلك طريقاً غير طريق وطنها ثم تياسرت بعد ذلك.

(١) تنجو: تسرع في سيرها. كناز لحمها: أي مكتنزة اللحم. حفزت: دفعت. الفقار: خرز الصلب والعنق والذنب.

(٢) وشجت: دخنت. الاطباق والدأيات واحد: وهي فقار العنق، وقيل: ضلوع الصدر. الأزوار، الواحد زور: الصدر.

(٣) الخرق: الفرجة تكون في الثوب وغيره، وقال المؤرج: كل بلد واسع تتخرَّق به الرياح فهو خرق.
الكلال: الإعياء. السَّاري: الذي يسير ليلاً. أراد أن سير الليل وشدة الأعياء لا تنال منها.

(٤) الصناع: المرأة الحاذقة بالعمل والاعتناء بنفسها بعكس المرأة الخرقاء التي لا تبالي بزينة نفسها.

(٥) المحجر: ما يحيط بالعين من خارجها. تبدي: تظهر. وتواري: تخفي.

هذه القصيدة على البحر الكامل[1]، وقد استهلها الشاعر بالمدح، ولم يستهّلها بالغزل على عادة الشعراء في الجاهلية وصدر الإسلام، وهذا يعني أن هناك تحوّلاً جديداً في شعر كعب، إلاّ أنه تحوّل لم يكن جذرياً بكل معنى الكلمة، ولا هو يشكل انقلاباً على الانماط الجاهلية في المدح، وهذا التحّول يمكن لنا أن نلمحه في المعاني الجديدة التي اهتدى إليها بعد اسلامه فقد وسع الاسلام مدارك عقله وآفاق خياله، وأمدّه بأشياء كثيرة كان يفتقدها ويجهلها، ولم يكن بوسعه أن يدركها لولا ذلك الاطلاع على القرآن وعلى تعاليم الاسلام، ولذلك نجد كعب في هذه القصيدة أعمق فكراً وأشمل نظراً، كما أنها تحمل منهجاً مغايراً للسّنن التقليدي إذ نراه فيها يخلع ذلك النهج وكأنّه رأى فيه تكراراً مملاّ أو إرثاً قديماً لا يتناسب مع طبيعـة العقيدة الجديدة التي آمن بها طائعاً مختاراً بل وتائباً من قديمه الذي ألحق به الضرر، وكاد يقضي عليه لولا رحمة الله التي أكتنفته، لذلك نراه يخرج فيها من طبيعته الأولى، ويخلع رداء التقليد المملّ، ويخاطب الأنصار في شعر يحمل لأوّل مرّة معارفه الجديدة ومكتسباته

---

(١) وزنه:

مـتـفـاعـلن مـتـفـاعـلن مـتـفـاعـلن
مـتـفـاعـلن مـتـفـاعـلن مـتـفـاعـلن

الايمانية المستحدثة ويكاد يتحلّل فيه إلى حدٍّ ما، من قيوده الماضية، ويخلع عنه رداء التقليد لولا ذلك التخلُّص اللبق الذي شدّه إلى قديمه وحمله على وصف الناقة، ولولا بعض ذلك المدح الذي نلمح فيه أنفاس شعر الخنساء في رثائها لأخيها صخر[١]

---

(١) انظر بعض أبياتها «والمطعون الضيف، والمنعمون المفضلون إذا شتوا - وورثوا السيادة.

أشعاره

قصيدته «بانت سعادُ» وهي على البحر البسيط[1].

بَـانَـتْ سُعَـادُ، فَـقَلْبـي الْيَـوْمَ مَـتْبُـولُ
مُتَيَّمٌ إثْـرَهـا، لم يُجْـزَ[2] مَكْـبُـولُ[3]
ومـا سُعَـادُ، غَـدَاةَ البَيْنِ، إذ رَحلوا[4]
إلاَّ أغنُّ غَضِيْضُ الـطَّرْفِ، مَكْحُـولُ[5]
هـيفـاءُ مُـقْبـلةٌ، عـجـزاءُ مُـدبِـرَةٌ،
لا يُشتكى قِـصَـرٌ مِنْـهَـا، وَلاَ طُـولُ[6]

---

(١) مـسـتـفـعـلن فـاعـلن مـسـتـفـعـلن فـعَـلن
مـسـتـفـعـلن فـاعـلن مـسـتـفـعـلن فـعَـلن.

(٢) كذا في الأصل، وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة، أما في جمهرة اشعار العرب لأبي زيد القرشي فقد ورد «لم يُفْدَ».

(٣) بانت: فارقت. متبول: متيَّم، هائم. متيم: مذلَّل بالحب. لم يجز: لم يجد من يفديه. مكبول: مقيد أسير.

(٤) ويروي في الشعر والشعراء: «إذ عرضت».

(٥) البين: البعاد والفراق. أغن: صفة للغزال الذي في صوته غنَّة وهو صوت محبوب يخرج من أقصى الأنف. غضيض الطرف: فاتر النظر، منكسر الاجفان. وهذه صفات حسنة من صفات العيون.

(٦) لم يرد هذا البيت في الديوان، وقد أثبته القرشي في الجمهرة. هيفاءُ: ذات قامة مديدة. عجزاء: ذات عجيزة ضخمة. وهذا ما كانت تحبه الأعراب في النساء. راجعْ فصل المرأة من هذا الكتاب.

تَجْلُو عَــوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ٱبتَسَمَتْ
كــأنَّـهُ مُـنْـهَـلٌ بــالــرَّاح مَـعْـلُولُ[١]

شُـجَّتْ بِــذِي شَبَمٍ مِـن مــاء مَحْنِيَــةٍ
صافٍ بِأَبـطَحَ، أضحى، وهو مَشْمُـولُ[٢]

تجلو[٣] الـرِّيـاحُ القـذى عنـه، وافـرطه
مِنْ صَــوْبِ سَارِيَــةٍ بيضٌ يعـاليــلُ[٤]

يــا ويحَهــا خُلَّةٌ[٥] لــو أنَّهــا صَـدقتْ
مـا وعَدَتْ أو لـو أن النصحَ مَقبُـولُ[٦]

---

(١) تجلو: تكشف. العوارض: الضواحك من الأسنان. الظلم: ماء الاسنان وبريقها ولمعانها. المنهل: المسقي مرة أولى. الراح: الخمر. المعلول: المسقى مرة بعد أخرى.

(٢) شجت: مزجت. ذو الشَّبم: البارد. الأبطح: المسيل المتسع. المشمول: الذي أصابته ريح الشمال فبرّدته.

(٣) وروايته في الجمهرة «تنفي».

(٤) الصوب: المطر. أفرطه: ملأه. السارية: السحابة التي تمطر ليلاً. البيض: السحاب البيض، وقد حلت الصفة مكان الموصوف. اليعـاليل، الواحد يعلول: السحابة الطويلة.

(٥) ويروى أيضاً: «ويل أمها خلَّة». وفي جمهرة أشعار العرب: «أكرِمْ بها خلَّة».

(٦) الخلّة: الخليلة، الصديقة. يقول ما أكرمها صاحبة لو أنها تصدق وعدها أو أنها تقبل النصح في من يهواها.

لكِنَّهـا خُلَّةٌ قـد سِيطَ من دَمِـهَـا
فَجْـعٌ، وولـعٌ، وإخـلافٌ، وتَبْـدِيْـلُ [1]
فَمـا تـدُوم على حـالٍ تَكُـونُ بهـا،
كـمـا تَلَوَّنُ فـي أثـوابِـهـا الـغُـولُ [2]
ومـا تَمَسَّـكَ بـالـوصـل الـذي زَعَمَتْ
إلَّا كمـا تُمسِكُ المـاءَ الغـرابيـلُ [3]
كـانتْ مَـوَاعِيـدُ عُـرْقُـوبٍ لهـا مَثَـلاً
ومـا مـواعـيـدهـا إلا الابـاطيـلُ [4]
أرجُـو وآمُـلُ أن يَـعْـجَـلْنَ فـي أبـدٍ
ومـا لهنَّ طَـوالَ الـدَّهـر تعجيـلُ [5]

---

(١) سيط: خلط. الفجع: الاصابة بما يكره. الولع: الكذب. وإخلاف، أخلف: جعل شيئاً بدل آخر ذهب منه أراد أنها قد خلط بدمها الفجع بالمصائب والكذب في الاخبار وإخلاف الوعد وتبديل خليل بآخر، وصار ذلك سجية لها وطبعاً يلازمها لا حيلة في زواله عنها.

(٢) كذا رواية صدر البيت في الجمهرة، أما روايته في الشعر والشعراء: «وما تدوم على العهد الذي زعمت». والغول: السعلاة، وقد زعم العرب أنها تغتالهم، وأنها تتراءى لهم في الفلوات على صور مختلفة وأشكال متباينة فتضلهم عن الطريق.

(٣) أراد أنها لا تفي بعهودها ومواثيقها.

(٤) عرقوب: رجل من يثرب يضرب به المثل في إخلافه بالوعد.

(٥) وقد ورد في الجمهرة: أرجو وآمُلُ أن تدنو مودتها وما اخال لدينا منك تنويلُ والتنويل: العطاء. يقول: مع اتصاف باخفاء وإخلاف الوعد، فإني لا =

فَـلا يَغُـرَّنْـكَ مـا مَنَّتْ، ومـا وَعَـدَتْ
إنَّ الأمـانـيَّ والأحْـلامَ تـضـليـلُ[1]
أَمْسَت سُعـادُ بـأَرضٍ لا يُبَـلِّغُهـا
إلا العِتـاقُ، النجيبـاتُ، المـراسيلُ[2]
وَلَـنْ يُـبَـلِّغَـهـا إلاَّ عُـذافِـرَةٌ
فيهـا عـلى الأينِ إرقـالٌ وتَبْغيـلُ[3]
مِنْ كـل نضَّاخـةِ الذِّفـرى إذا عـرِقَتْ
عُـرْضَتُهـا طامِسُ الأعْـلامِ مَجْهُـولُ[4]
تَـرْمي الغُـيُـوبَ بِعَيْنَيْ مُفْـرَدٍ لَـهِقٍ
إذا تَـوَقَّـدَتِ الـحُـزَّانُ والـمِـيـلُ[5]

= أقطع الرجاء من مودّتها، ثم التفت إليها يخاطبها: ولا أحسب أن لي منك عطاء أرجوه.

(١) منت: جعلتك تتمنى. تضليل: عدم الهداية.

(٢) لا يبلغها: لا يبلغ سعاد إليها. العتاق: النوق الكرام الأصول. النجيبات المراسيل: السريعات السهلة اليدين في السير.

(٣) العذافرة: الصلبة القوية. الأين: التعب والنصب. الإرقال: ضرب سريع من السير. التبغيل: ضرب من الهملجة، يقال هملجت الدابة: سارت سيراً حسناً في سُرْعة.

(٤) النضاخة: السائلة. الذفرى: ما تحت اذن الناقة ما يلي الرقبة. عرضتها: أي إهتمامها ومقدرتها. الطامس: المندرس، المختفي. الأعلام، الواحد علم: وهو الإشارة على الطريق.

(٥) المفرد: المنفرد، أراد به الثور الوحشي. لهق: شديد البياض. الحزان، الواحد حزن: ما غلظ من الأرض. الميل: ما تراكم ومال من الرمل.

ضخمٌ مُقلَّدُها، فعْمٌ مُقيَّدُها
في خَلْقِها، عن بَناتِ الفحْلِ، تفضيلُ[1]

غلباءُ، وجناءُ، عُلكومٌ، مُذكَّرةٌ
في دَفِّها سَعَةٌ، قُدَّامُها ميلُ

وَجِلْدُها من أُطُومٍ ما يُؤَيِّسُهُ
طِلْحٌ، بضاحيةِ المتنين، مهزُولُ[2]

حَرْفٌ أخوها أبوها من مُهَجَّنةٍ
وعَمُّها خالُها، قَوداءُ، شِمْليلُ[3]

يمشي القُرادُ عليها، ثُم يُزلِقُهُ
مِنها لبانٌ، وأقرابٌ زهاليلُ[4]

---

(١) المقلد: موضع القلادة من العنق. المقيَّد: موضع القيد، الرسغ. بنات الفحل: النوق.

(٢) الغلباء: الغليظة. الوجناء: عظيمة الوجنتين. العلكوم: الضخمة. مذكرة: تشبه الذكر. الدف: الجنب. قدَّامها ميل: أي أنها طويلة العنق. الاطوم: قيل أنها سلحفاة بحرية، وقيل سمكة غليظة الجلد. يؤيسه: يؤثر فيه. الطلح: القراد. ضاحية المتنين: ما برز للشمس من ظهرها. مهزول: ضعيف.

(٣) الحرف: الناقة الضامرة. المهجنة: الكريمة. قوداء: طويلة العنق. الشمليل: الخفيفة.

(٤) القراد: دويبة تتعلق بالبعير وغيره تمتص دمه وهي كالقمل عند الإنسان. اللبان: الصدر. الاقراب: الخواطر. الزهاليل، الواحدة زهلول: أي ملساء.

عيرانةٌ قُذِفتْ في اللحم عن عُرُضٍ
مِرفقُها عن نباتِ الزُّورِ مفتولُ[1]
كأنَّ ما فات عَيْنَيْها وَمَذْبَحَها
من خَطْمِها وَمِنَ اللَّحْيَين بِرْطيلُ[2]
تَمر مِثْلَ عَسِيب النَّخْلِ، ذا خُصَلٍ
في غارزٍ لم تَخَوَّنْهُ الاحاليلُ[3]
لَقَدْ أقُومُ مَقَاماً لو يقُومُ بِهِ
أرَى وأَسْمَعُ ما لَوْ يَسْمَعُ الفِيلُ[4]
لَظَلَّ يُرْعَدُ إلا أن يَكُونَ لَهُ
مِنَ الرسولِ بإذنِ الله، تنويلُ[5]

---

(١) عيرانه: صلبة كالعير، والعير هو الجمل. وقوله: عن عرضٍ، أي رميت باللحم في أعراضها. ونبات الزور: العضلتان.

(٢) فات: تقدم. الخطم: مقدَّم الأنف، البرطيل: الحديدة الطويلة أو الحجر الطويل.

(٣) عسيب النخل: الجريدة، شبه بها ذنب الناقة. الغارز: الضرع. تخوَّنه: تنقصه الأحاليل، الواحد أحليل، وهو مخرج الحليب من الثدي.

(٤) يقول: لقد حضرت مجلساً هائلاً، ورأيت أمراً عظيماً، وسمعت كلاماً عجيباً لو رآه وسمعه الفيل لظلّ يرعد.

(٥) يرعد: تأخذه الرعدة من شدة الخوف، وخص الفيل لأنه أراد التهويل والتعظيم، لأن الفيل كما هو معروف أعظم الحيوانات وأضخمها جثة. التنويل: العطاء، وأراد به هنا التأمين.

حتى وَضَعْتُ يميني لا أُنازِعُهُ
في كَفِّ ذي نَقِماتٍ قيلُهُ القِيلُ[1]

لَذاكَ أهيبُ عندي إذا أُكَلِّمُهُ
وقِيلَ: إنكَ مَنْسُبورٌ وَمَسْؤُولُ[2]

مِنْ ضيغمٍ من ضِراءِ الأُسد مخدَرُهُ
ببطنِ عَثَّرَ، غِيلٌ دُونَه غِيلُ[3]

يَغْدو، فَيَلحَمُ ضِرْغامَيْنِ، عَيْشُهما
لَحْمٌ مِنَ القَوْمِ مَعْفُورٌ، خرَاديلُ[4]

إذا يُساوِرُ قِرْناً لا يحل لَهُ
أن يتْرُكَ القِرْنَ إلا وهو مفلولُ[5]

---

(١) وضعت يميني: إشارة إلى مصافحته النبي بالإسلام، والضمير في أنازعه عائد للنبي. قيله القيل: أي قوله صادق فاصل.

(٢) المسبور: الحَسَنُ الهيئة. منسوب: أي مسؤول عما نُسب إليك.

(٣) الضيغم: الأسد، الضراء، الواحد ضارٍ: أي مفترس. مخدره: عرينه. عَثَّر: بفتح أوله وتشديد ثانيه، وآخره راء مهملة، قال أبو منصور: عثَّر موضع وهو مأسدة يعني أنه كثير الأُسود. معجم البلدان (٤ : ٨٥). غيل: أي هلاك ما بعده هلاك.

(٤) يغدو: يبكر. يلحم: يطعم لحماً. معفور: مطروح على التراب. الخراديل، الواحد خردله: أي القطعة الصغيرة.

(٥) القرن: الخصم. مفلول: مكسور، منهزم.

مِنْـهُ تَـظَلُّ حَميـرِ الـوَحْشِ ضـافِـرةً
ولا تُـمَشّـي بـوادِيـهِ الأراجيـلُ[1]
ولا يـزال بـواديـه أخـو ثـقـةٍ
مُطَرَّحُ البزِّ، والـدِّرْسانِ، مـأكُولُ[2]
إنَّ الـرَّسـولَ لـسيفٌ يـستضـاءُ بـهِ
مـهنـدٌ من سيـوفِ اللهِ مَسْلُولُ[3]
في عُصْبـةٍ من قُـريشٍ قـال قَـائِلُهم
ببطن مَكَّـة، لمـا أسلمـوا: زولـوا[4]
زالـوا، فمـا زال أنكـاسٌ، ولا كُشُفٌ،
عنـد اللِّقـاءِ، ولا مِيـلٌ مَعَـازِيـلُ[5]

---

(١) الضافرة: الساكنة. الأراجيل، الواحد رجيل: الراجل بخلاف الراكب.

(٢) الدِّرسان، مثنى درس: وهو الثوب المتخرِّق البالي. ويروى أيضاً: «مطرح اللحم والدرسين مقتولُ».

(٣) يستضاء به: يهتدي به. المهند: السيف المنسوب إلى الهند، وهو أجود السيوف عند العرب.

(٤) العُصْبة: الجماعة. قائلهم: أراد به عمر بن الخطاب رضي الله عنه. زولوا: أي هاجروا من مكة إلى المدينة، وإنما خصَّ قريشاً بالذكر لأن أغلب المهاجرين كانوا منها.

(٥) الانكاس، الواحد منها نكس: وهو الضعيف الجبان. كشفٌ، الواحد أكشفُ: وهو من لا ترس له يحميه، أو هو الشجاع الذي لا ينكشف في الحرب. ميل، الواحد أميل: وهو من لا سيف له، أو من لا يحسن =

شُمُّ العـرانـيـن، أبـطالٌ، كـبُـوسُـهُـمُ
من نَسْجِ داودَ في الهيجا، سـرابيلُ[1]

بيضٌ سَـوابـغُ قَـدْ شُكَّتْ لهـا حَـلَقٌ
كـأنّـهـا حَلَقُ القَفـعـاءِ، مجـدُولُ[2]

لا يَـفْـرَحُـونَ، إذا نَـالَـتْ رِمـاحُـهُـمُ
قـومـاً، ولَيْسُـوا مَجَـازيعـاً، إذا نِيلوا[3]

يَمْشُـونَ مَشْيَ الجِمالِ الزُّهر، يَعْصِمُهم
ضَـربٌ، إذا عَـرَّد السُّـودُ التَّنـابِيـلُ[4]

ـ الركوب. المعازيل: الواحد معزول: وهو الأعزل، من لا يملك سلاحاً.

(١) شم العرانين، والعرنين: هو رأس الأنف، كناية عن الأنفة والإباء. من نسج داود: أي من صنعه، أي دروعهم داودية الصنع، علامة الجودة والمتانة والاتقان، وهي من الدروع المشهورة. السرابيل: الدورع.

(٢) البيض السوابغ: الدروع. شُكَّتْ: أُدخل بعض وسُمِّرَت. القفعاء: نوع من النبات ينبسط على وجه الأرض له حلقٌ كالخواتم.

(٣) المجازيع، الواحد مجزاع: وهو الشديد الجزع والخوف. يقول: إنهم إذا حققوا النصر لا يفرحون به لكونه من عاداتهم، وإذا هزمهم عدوهم لا يجزعون من لقائه ثانية لثقتهم بالتغلب عليه.

(٤) ويروى «البهم» مكان «الزهر». الزهر: البيض. عرَّد: جَبُنَ. التنابيل، الواحد تنبال: وهو القصير. وكعب يُعرِض في هذا البيت ـ على حدّ قول بعض الشرَّاح ـ بالانصار لتحاملهم عليه يوم وفد على الرسول ﷺ.

لا يَقَــعُ الـطَّعْنُ إلَّا فـي نُـحُــورِهـمُ،

ما إن لَهُمْ عن حِياضِ الموتِ تهليلُ[1]

لقد استهل كعب قصيدته متغزلاً واصفاً ثغر حبيبته، شاكياً هجرها، وإخلافها مواعيدها، فترى الصور الحسية تتراكم في أوصافه ويتبع بعضها بعضاً، ولا سيما تشبيه حلاوة الثغر وبرودته بخمرة خُلطت بماء بارد، ثم إلحاقه بوصف هذا الماء ليبالغ في تصوير برودته وصفائه... وأراد أن يصفها بالكذب والاخلاف والفجع والتبديل، فصور أن هذه الصفات متحكمة فيها، حتى أنها قد أصبحت تجري بدمها لا تقدر على مقاومتها. كما يتطرق إلى الحكمة وضرب المثل، كقوله: «ولا تَمَسَّكُ بالعهد...، إن الاماني والاحلام تضليل...، كانت مواعيد عُرقوب... كل ابن انثى وان طالت سلامته... الخ». وينتقل بعد ذلك إلى وصف الناقة فيبدع ابداعاً يجاري فيه فحول الشعراء امثال طرفه وغيره، ويتلاعب بالمعاني تلاعباً ذكياً لم يسبقه إليه أحد. وفي هذا القسم أيضاً تكثر الصور المادية، كما تكثر الألفاظ الغريبة، فيصف ضخامة عنق ناقته وطوله، وعظم وجنتيها، ونعومة جلدها، ثم يشبه وجهها في صلابته بمعول من حديد أو حجر

(١) حياض الموت: موارد الهلاك. التهليل: الجبن والفرار. يقول: لا يقع طعن الأعداء في ظهورهم لأنهم لا يفرون من القتال كما ليس هم جبناء حتى يتأخروا عن موارد الردى.

مستطيل، وذنبها بجريد النخل، وقوائمها بالرماح الصلبة. وهي في سرعتها لا تمس الأرض إلا مساً يسيراً. كما يحلف الإنسان ليفعلن هذا الشيء فيفعل منه اليسير ليتحلل به من القسم. وهي لا تحتاج إلى تنعيل يقيها الحجارة لصلابة أخفافها. ويصف حركة ذراعيها وسرعة تقلبها، فيرينا صورة مادية رائعة لم يُسبق إليها، ويستطرد معها إلى وصف شدة الحرِّ. وينتقل بعد ذلك إلى مدح النبي والاعتذار إليه، ومدح المهاجرين من قريش. وفي هذا القسم من القصيدة ترق الفاظه، ويقل غريبه إلا في وصف الأسد، فمثله كمثل أيِّ شاعر جاهلي يجعل لكل مقامٍ مقالاً، فإذا تغزل أو استعطف أو رثى رقت عاطفته ورقت ألفاظه، وإذا افتخر أو مدح اشتدت عاطفته، وجزلت ألفاظه واشتد أسرها. وإذا وصف ناقته والقفار الموحشة والسباع الضارية، خشنت عاطفته، وخشنت معها ألفاظه. كما نرى أن كعباً مدح الرسول بأسلوب جاهلي صرف، دون أن يشير إلى فرض من فروض الدين الاسلامي، أو إلى آية من القرآن؛ ذلك بأنه كان يجهل حقيقة الإسلام يوم نظم قصيدته، وهو لم يُسلم إلا رهبة وفرقاً[1]؛ ولا عجيب أن يشبه الولد أباه فيكون له خاصة أبيه زهير في براعة التشبيه والتصوير الحسي، وله خاصته أيضاً في إرسال الأمثال

(١) فرقاً: خوفاً ورعباً.

الحكمية. ونكون من المنصفين اذا قلنا: إن زهيراً وكعباً والحطيئة ينتحلون مذهباً أدبياً ذا صبغة واحدة. على أننا قد نجد في شعر كعب كثيراً من اللفظ الغريب، وقد عزاه الدكتور طه حسين إلى أن كعباً قد قلَّد فيه استاذ أبيه ونعني به أوس بن حجر، ولعله مصيب برأيه، فإن والده زهيراً كان راوية أوس وعنه أخذ أسلوبه الوصفي وما فيه من التشابيه والصور المادية. وكان أوس جاهلياً قديماً يؤثر اللفظ الغريب في شعره. فجاء شعر كعب وعليه طابع المذهب الزهيري، أو المذهب الأوسي، مع إيثار الغريب من الألفاظ تشبهاً بأستاذ أبيه. ونخلص إلى القول: إن في أبيات المدح عند كعب كما في غيرها في شعره من تأثير المذهب الزهيري الأوسي، فالصور المادية قوية صارخة، ولا سيما تشبيه النبي ﷺ بالأسد، ثم وصف هذا الأسد وصفاً قصصياً عرفناه عند زهير من قبل، ان كعباً كأبيه زهير يهذب شعره وينتقي ألفاظه، ويتخير معانيه، كما تظهر لنا حكمة زهير في قوله: «وكل ابن انثى وإن طالت سلامته...» وما أجمل التصوير رغم بداوة المعنى في وصفه هيبة الرسول، وما يستولي من الفزع على الماثل في حضرته. وكأني بالشاعر أراد الاعتذار من خوفه فلم يجد غير الفيل الضخم مثالاً للجرأة فقال: لو وقف الفيل موقفي ورأى ما رأيت، وسمع ما سمعت، لظل يُرعَد خوفاً وهلعاً، فلا لوم

عليٍّ إذا هِبْتُ الرسولَ فهو أهيب عندي من أسد في بطن عَثَّرَ[1] كثير الصيد، شديد الضرواة. ان في هذا الاعتذار، وفي ذلك التمثيل سذاجة جاهلية خشنة، ولكنها مع ذلك لطيفة مستحبة. ويبقى علينا أن نذكر أن هذه القصيدة هي من نوع المشوبات[2] وهي القصائد التي شابها أي خالطها الكفر والاسلام.

(١) عَثَّر: مأسدة: مكان كثير الأسود.

(٢) المشوبات، مفردها مشوبة.

آثاره

أما آثار كعب، فتتمثل في قصائد متفرقة وأبيات منثورة هنا وهناك في كتب الأدب، وقد جمعت في ديوان يحمل اسمه، ولا يتجاوز عدد صفحاته المئة وعشر صفحات، أمّا موضوعات شعره فهي كغيرها من موضوعات الشعر الجاهلي، تتراوح بين الفخر والمدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف وبعض الحكم، إلاّ أنّنا يمكن أن نجد في شعره اتجاهين متباينين، لأن اسلام كعب قد غيّر في نهج شعره، وأمدّه بكثيرٍ من صور، ورقق ألفاظه ومعانيه حيث كان كعب في الاتجاه الأول ـ أي قبل الاسلام ـ يميل إلى الشدّة والتقعرّ وخاصةً في وصف الصحراء وحيوانها، بينما في الاتجاه الثاني ـ أي بعد الاسلام ـ نراه يميل إلى إرسال الحكمة وإلى الابتعاد عن الموضوعات الجاهلية، وأشهر قصائده على الأطلاق لاميته «بانت سعاد» التي تعدُّ من المشوبات[1] وقد كثر محمسو لامية كعب ومشطروها ومعارضوها وشرّاحها، كما ترجمت إلى الايطالية، وقد عني بها المستشرق رينيه

(١) المشوبات: مفردها شوبة وهي القصيدة التي شابها أي خالطها الكفر والإيمان. .

باسِّيت Rene Basset، فنشرها مترجمة إلى الفرنسية ومشروحة شرحاً جيداً، وصدّرها بترجمة لكعب وحياته، كما أُطلق عليها اسم «البردة» لأنّ الرسول عليه الصلاة والسلام عند إلقاء كعب هذه القصيدة بين يديه خلع عليه بردته، فالمسألة إذاً ليست في أن يكون الشعر مقلاً أو مكثراً، وإنما العبرة فيما أنتج من شعر جيد، ومهما يكن من أمر، فلكعب قدمٌ راسخة في ميدان الشعر، وصيتٌ ذائِع منذ أيام الجاهلية، حتى أنّ الحطيئة رجاه أن يذكره في شعره كما مرّ معنا.

ميزته: إن كعباً كأبيه زهير يهذب شعره، وينتقي الفاظه، ويتخير معانيه، فهو يتنخّل القوافي - أي القصائد - ويثقفها، ولا عجب فالولد سرُّ أبيه، فلكعب براعة أبيه في التشبيه والتصوير الحسي، وله خاصته أيضاً في إرسال الأمثال الحكمَية. وقد نكون قد وضعنا الأمور في نصابها إذا قلنا أن زهيراً وكعباً والحطيئة ينتحلون مذهباً أدبياً ذا صبغة واحدة. على أننا نجد في شعر كعب كثيراً من اللفظ الغريب، وقد عزاه الدكتور طه حسين إلى أن كعباً قلد فيه أستاذ أبيه أوس، وعنه أخذ أُسلوبه الوصفي وما فيه من التشابيه والصور المادية. وكان أوس جاهلياً قديماً يؤثر اللفظ الغريب في شعره. فجاء شعر كعب وعليه طابع المذهب الزهيري، أو

بالأصح المذهب الأوسي على رأي الدكتور طه حسين، مع إيثار الغريب من الالفاظ تشبهاً بأستاذ أبيه أوس بن حجر. فنحن اذاً الآن أمام مذهب ندعوه زهيرّياً أو أوسياً إذا ذهبنا إلى أبعد من زهير.

منزلته: قِيْلَ لِخَلف الأحمر: زهير أشعر أم ابنه كعب؟ قال: لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلتُ أن كعباً أشعر منه. كما عدَّه ابن سلّام في الطبقة الثانية قبل الحطيئة. ولو جاز لنا أن نبني حكماً صحيحاً على شعره، لقلنا إن له من البراعة والتصرف في المعاني ما يضعه في مصاف أفحل الشعراء الجاهليين. وحسبنا أن نشير إلى تفننه في وصف الماء بعد أن مزج به الخمرة التي علٍّ بها ثغر سعاد، ثم إلى تفننه في وصف حركات المرأة الثكلى بعد أن شبه ذراعي ناقته بذراعيها في السرعة والتقلب، ثم إلى إلحاحه في وصف ضراوة الأسد بعد أن فضل الرسول عليه في الهيبة. نعم حسبنا أن ننظر إلى ذلك لنتبين منزلة الشاعر السامية، وبراعته في سوق المعاني والتلاعب بها وبالالفاظ، والغوص على دررها البعيدة القرار، وقصارى القول: إن كعباً شاعر مفطورٌ بارعٌ في فنه، ورسّامٌ بديع التصوير، ومخترع واسع المخيّلة والحيلة، وأحد أساتذة المذهب الذي صفّى الشعر ونقّحه وهذبه.

شعره الحكمي

الحكمة في شعر كعب ليست أمراً طارئاً عليه أو هي مستبعدة من أن تصدر عن مثله، فهو ابن زهير بن أبي سُلمى الشاعر الذي زخرت معلّقته بكثير من المواعظ والحكم، كما أن مذهب المدرسة التي ينتمي إليها اشتهر كذلك بالرويّة والتنقيح وإجالة النظر، وهل الحكمة إلّا نتاج التأنّي والتأمل والصبر، إذاً فليس غريباً أن يشمل ديوان كعب على حكم كثيرةٍ مبثوثةٍ هنا وهناك في ثناياه، وأكثرها يمثّل مقطوعات صغيرة مستقلّة يبدو عليها أثر الاسلام واضحاً، إذ يستفيد كعب من تعاليم دينه الجديد كثيراً من الآراء، ويستمدّ منها ما يخفّف عن نفسه غِيَرَ الدهر وصروفه التي أوجعت قلبه ولوّحته بنيران الهمّ والفاقه، فإذا بشعره الحكمي يتحوّل إلى نفثات خالدة ينفثها كلّ من يكابد من دهره ما كابده كعب منه، فهي مستلّة من الذات، ومشبعة بتعاليم المدرسة الاسلامية التي هي صوبٌ لا ينقطع، ونبع لا يصمت عن الدفقان، يقول كعب:

لــو كـنـت أعـجـب مـن شيءٍ لأعـجـبـني
سَعْيُ الفتـى وهــو مخبــوءٌ لــه القــدر

يسعى الفتى لأمورٍ ليس يُدركها
والنفسُ واحدةٌ والهمّ منتشرُ
والمرء ما عاش ممدودٌ له أملٌ
لا تنتهي العين حتّى ينتهي الأثرُ

فالتعاليم الاسلامية في هذا الشعر واضحة كلّ الوضوح، وهي تشعرنا كيف يسلّمُ كعبٌ بقضاء الله وقدره، كما تشعرنا مدى تغلغل الاسلام في روح كعب ونفسه، والذي استطاع أن يقضي فيها على نزعاتها الجاهلية ويحوّل نقمتها على الحياة إلى أمل، بعطاء الله وفرجٍ قريبٍ من رحمته الواسعة.

وهكذا نرى كعب في كلّ أشعاره الحكمية يستمّد زادها من الاسلام حيث يوكل أمره إلى الله الذي وحده يتكفّل العباد، ويمنّ عليهم بالرزق والنعمة والافضال، يقول كعب:

أعلمُ أنّي متى ما يأتني قدري
فليس يحبسه شحٌّ ولا شفقُ
بينا الفتى معجبٌ بالعيش مغتبطٌ
إذا الفتى للمنايا مُسْكَمٌ غلقُ
والمرء والمال ينمي ثمّ يذهبُهُ
مرُّ الدّهور ويفنيه فينسحق

فــلا تخــافي علينــا الـفقــر وانتــظري
فضـــل الـــذي بـــالغنى من عنـــده نثق
ان يفنَ مـــا عـنـــدنـــا فـــالله يـــرزقنـــا
ومـن ســوانـــا ولسنـــا نـحـن نـرتـزق

ففي هذه الأبيات يقترب كعب من أن يكون واحداً من زهّاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر الشخص منهم في رزق غدٍ، بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغتفر، لأن ربّ العباد مكفّلٌ برزقهم، وليس عليهم إلاّ أن يسلّموا أمرهم له، فهو القادر على أن يرزقهم وسواهم من الناس قاطبة.

ويمضي كعب في أشعاره الحكمية محمّلاً لها ما شاء من تعاليم الاسلام التي تدعو إلى التوكّل على الله في كلّ أمر، والسعي الدّائم الذي لا يقعد المرء عنه خوفٌ من أذىً أو مكروه، لأن كلّ شيء يحدث للمرء بمشيئة من الله وأمر من قضائه العادل، يقول كعب:

فــأقسمـت بـــالــرحمن لا شيء غـيــره
يـــمـــيـــن امــرىءٍ بــرٍّ ولا أتــحـــلّلُ[1]

(١) لا اتحلّل: لا استثني.

لاستشعـرنْ أعـلى دريسـيّ مـسـلمـاً
لــوجــه الـذي يحيي الأنــام ويقتــلُ[1]
هــو الحـافظُ الــوسنـان بــالليـل ميتــاً
عـلى أنّــه حيٌّ مـن الـنـوم مـثـقـلُ[2]
من الأســود الســاري وإن كـــان ثــائــراً
على حــدٌ نــابيــه السِّمــامُ المثمَّــلُ[3]

ويدلُّ ديوانه، كما يدلُّ تأخّره في اسلامه على أنّه كان فيه شرٌّ كثير، إذ نراه دائماً في شعره الجاهلي مفاخراً متوعداً مهدداً، حتى إذا أسلم، أخذت نفسه تصفو وتتخلّص ممّا علق بها من أدران الجاهلية وعصبياتها، وأخذ يستشعر معاني الاسلام الروحية، وما دعا إليه من الاخلاق الفاضلة والقيم السمحاء، حتى لنراه يترفع في هجائه عن السخط والسُّباب وذكر المثالب ويميل فيه إلى الصفح الجميل، ويكثر من الحكم والمـواعظ التي يريـد منها الاقنـاع وكفّ الأذى، والابتعاد عن المهاترة فاسمعه يقول:

إن كـــنـــت لا تـــرهـــب ذمِّـــي لـــمـــا
تـعــرف من صـفـحـي عـن الـجــاهــل

(١) الدّريس: الثوب البالي، كنّى بذلك عن حسن إسلامه وتوكُله.
(٢) الوسنان: النائم.
(٣) الأسود: الأفعى السّامة. والسّاري: الذي يسير ليلاً. المثمَّل: المجمَّع.

فاخشَ سكوتي إذا أنا منصتٌ
فيك لمسموع خنا القائل[1]
فالسّامع الذّامُّ شريكٌ له
ومطعم المأكول كالآكل
مقالُة السوء إلى أهلها
أسرعُ من منحدر سائل
ومن دعا الناس إلى ذمّه
ذمّوه بالحق وبالباطل
ولا تهجْ إن كنت ذا إرْبَةٍ
حربَ أخي التجربة العاقل[2]
فإن ذا العقل إذا هجتهُ
هجت به ذا خبلٍ خابل[3]

فكعب كما نرى ينهى المسيء الذي يتناول الناس بلسانه عن فعله لأن ذلك في كثير من الاحيان يرتدّ عليه هجاءً مرّاً ومقذعاً، فبناء النفوس وإصلاحها أمرٌ صعب، بينما الافساد في الأرض سرعان ما ينتشر كما تنتشر النار في الهشيم.

---

(١) الخنا: الفحش في القول.

(٢) الاربة: الدهاء.

(٣) خبل: الفساد في العقل، والخابل: المحبوس.

وهكذا نجد كعباً في كلّ شعره الحكمي يتمثل المعاني الاسلامية ويتأدّب بأدابها التي نراها تحدث تغييراً هاماً في نفسيته وسلوكه كما تحدث تغييراً واضحاً في شعره الذي يميل فيها إلى السلاسة واللين، والابتعاد عن غلظة الجاهلية وجفافها.

الفخر والحماسة في شعره

رأينا، كما يرى مؤرخو الأدب، أن نجعل الفخر والحماسة باباً واحداً لما بينهما من الاتصال الوثيق، لأن الحماسة ليست سوى فخر الفارس ببطولته وذكر وقائعه ووصف فرسه وسلاحه. وباب الفخر في الجاهلية، وإن اتسع إلى موضعات غير الفروسية كالنسب والسيادة والكرم والاخلاق والأهل، والولد والفصاحة، لا يخلو أصلاً عن المباهات بالشجاعة والاقدام. فالفخر والحماسة توأمان متلازمان، فلا فخر بدون حماسة، وكذلك الحماسة هي الفخر بعينه. ويحسن بالفروسية أن يرافقها شرف المحتد ومكارم الاخلاق، وشعر الفرسان يشتمل على جميع الفضائل الجاهلية، وأخصها فضيلة الفروسية، حيث ينصرف الشاعر إلى ذكر حروبه مبالغاً في وصف البطل الذي يبارزه ويسطو عليه، أو وصف المعركة التي يخوض غمارها ويلقي بنفسه في مهالكها.

ويحدث عن القتلى والأسرى والسبايا والغنائم، فلا يخلو حديثه عن تكثر أو غلوٍ. والتكثر والغلو من أهم خصائص شعر

الفروسية، حيث يجعل الشاعر منهم الواقعة الصغيرة تبدو وكأنها ملحمة كبيرة، والعدد القليل من الرجال يبدو جيشاً عرمرماً، والنفير القليل من القتلى يعد بالمئات والألوف. على أن غلوهم لم يأت مستقبحاً، وهو وليد العاطفة المتحمسة التي تجعله قريباً محبباً إلى النفس، والفطرة الساذجة التي تعطيه مسحة من الجمال الجذاب الذي يخالف الحقيقة ويصدق في شعوره الفني، ويجري مع الطبع في نشوة الخاطر المتدفق، لا يهيئه العقل عمداً في يقظة الفكر المتكلف. والشعر الحماسي كسائر الشعر الجاهلي، يعتمد في الأكثر والأعم على الوصف، وفي الأقل على القصص، وهو مع كل ذلك وفي كلا الحالين يؤثر الايجاز على التطويل، ويلمح الجزئيات دون الكليات، ويتعلق بالمادة أكثر من الروح. فلو أراد أن يصف معركة مثلاً اجتزأ ببضعة أبيات ترينا جواده وسيفه ومضات من البرق جميلة في سرعتها وتلويحاتها. غير أننا لا نخرج منها بفكرة عامة أو صورة تامة عن الواقعة، فما ندري كيف جرت حركات المتحاربين، وكيف انتظم الجيشان، وأين وقف الفرسان، وأين وقفت بقية الفِرق كالرجَّالة ورُماة السهام والنَبَّالة، وكيف تم الهجوم والالتحام. ولا نكاد نسمع من الأصوات إلا غماغم يختلط فيها وقع السلاح، وصياح الفرسان، وحمحمة الجياد،

ودقدقة الحوافر، ولا نرى من صفات السلاح إلا سيفاً قاطعاً، ورمحاً طويلاً، ودرعاً سابغة، وقليلاً ما يسهب الشاعر ويدقق في أوصاف السلاح كما يسهب ويدقق في نعت جواده ونعت الفارس المقاتل أو الخصم. على أن صورة الفارس لا تظهر في الغالب جلية، بل يتركها غامضة مغشاة مشوشة، ويعطينا المعركة على الاجمال تهاويل مقطعة الخطوط والأوصال لا يتألف من أجزائها وحدة موضوعية متلاحمة. فهذا كعب يَحُثُّ فتاته على السؤال عن مشهده بِبعاث، وهو موضع في نواحي المدينة كانت به وقائع بين الأوس والخزرج في الجاهلية، حيث تقدمت إليه غسانُ بالسيوف القواطع والرماح البواتر، وها هو يفخر بنفسه قائلاً: إنه امرؤ يلزم الحياء ويحفظه، وشيمته كرمُ الطبيعة، وتجنب الفحش في الكلام، ويفخر أيضاً بقومه، فهو من معشرٍ فيهم السادة النجباء، وليوثُ غاب تضطرمُ الحرب، يعولون بالدروع ويَجُلون بكل فارس مقدام يفد على الملوك ويصلح بين القبائل، مثل الشهاب حين يتوقد بالشجر الصلب الذي يبقى زمناً لا ينطفىء:

هَـلاَّ سـألتِ وأنـتِ غيـرُ عَـيِـيَّـةٍ[1]

وشِفـاءُ ذي العـيِّ السـؤال عن الـعَمَـى

---

(١) عَيِيَّة: عجز عن النطق بالكلام، فلم يستطع بيان مراده منه.

عـن مشـهـدي بِبُعـاثَ إذ دَلفـتْ لـه
غَسَّـانُ بـالبيضِ القـواطـعِ والقَنَـا[1]

. . .إني امـرؤٌ أقني الحيـاءَ وشيـمتي
كَـرَمُ الـطَّبيعـةِ والتَّجنب للخَنَـا[2]

مـن مـعـشـر فـيـهـم قُـرُومٌ سـادةٌ
ولُيُـوثُ غـابٍ حين تضـطرمُ الـوَغى[3]

ويَـصُـولُ بـالأبـدانِ كُـلُّ مُـسَـفِّـرٍ
مثـل الشِّهـابِ إذا تـوَقَّـدَ بـالغَضَـا[4]

وها هو أيضاً يفخر بقومه مُزينة وبني خُفاف يوم وجٍّ أي الطائف حيث صبحوا أهل الحَبَلَّق وهي أرض تسكنها قبائل مِنْ مُزينة وقيس، بألف من سُلَيم وألف من بني عُثمان فأوسعوهم ضرباً بالسيوف، وطعناً بالرماح، ورمياً بالسهام، وقد اشترك منهم في هذه المعركة الشُّبَّان والشيب، وهم

---

(١) بعاث: موضع في نواحي المدينة كانت به وقائع بين الاوس والخزرج في الجاهلية. دلفت، تقدمت. البيض: السيوف.

(٢) اقني الحياء: ألزمه وأحفظه. الخنا: الفحش في الكلام.

(٣) القروم: السادة.

(٤) الابدان: الدروع. المسفر: الذي يفد على الملوك ويصلح بين القبائل. الغضا: شجر من الإثل خشبه من أصلب الخشب وجمره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفيء.

يعتلون صهوات الجياد الجُرد أي القصيرة الشعر لكثرة استخدامها في المعارك، وقد غنموا إلى جانب الغنائم العينية الأجْرَ والثواب، وأما خصومهم فرجعوا نادمين على مخالفتهم رسول الله ﷺ حيث يقول:

نَـفَـى أهْـلَ الـحَـبَـلَّقِ يـومَ وجٍّ
مُـزيـنـةُ جَـهْـرةً وبـنـو خُـفـافِ[١]

صَبَـحْـنـاهُـمْ بـألـفٍ من سُـلَيْمٍ
وألـفٍ مـن بـنـي عُـثـمـانَ وافِ[٢]

حَـذَوا أكتـافَهُـمْ ضَـرْبـاً وطَـعْـنـاً
ورَمْـيـاً بـالـمُـرَيَّـشَـةِ الـلطافِ[٣]

رَمَـيْـنـاهُـمْ بـشـبـانٍ وشِـيـبٍ
تُكَفْكِفُ كـلَّ مُـمْـتَـنـعِ العِـطافِ[٤]

تَـرَى الـجُـرْدَ الجيـادَ تَلوحُ فِـيهِـمْ
بـأرمـاحٍ مـقـوَّمَـةِ الـثِّـقـافِ[٥]

---

(١) الحبلّق: الغنم الصغار، أو الأرض التي يسكنها قبائل مزينة وقيس. وج: الطائف.

(٢) بنو عثمان: من مزينة. الوافي: التام.

(٣) حدوا: تبعوا. المريشة: السهام.

(٤) العطاف، الواحد عطف: جانبا الرجل من رأسه إلى وركيه.

(٥) الجرد: الخيول القصيرة الشعر. مقوَّمة الثقاف: أي مقوَّمة التثقيف، والثقاف حديدة يقوم بها الشيء المعوج.

ورُحْـنـا غـانـمـيـنَ بـمـا أرَدْنـا
وراحـوا نـادِمـينَ عـلى الخِـلافِ[1]
فـجُـزنـا بَـطْنَ مـكَّـةَ وامـتـنـعـنـا
بـتقـوى اللهِ والـبـيضِ الـخـفـافِ[2]
أرادُوا الـلَّاتَ والـعـزَّى إلـهـاً
كـفـى بـاللهِ دَونَ الـلَّاتِ كـافِ[3]

وهذه القصيدة من إسلامياته قالها في يوم فتح مكة وفي غزوة حنين والطائف وكُنَّ في غزوة واحدة غزاهنَّ النبي ﷺ[4].

وهذه قصيدة أخرى يفخر فيها بنفسه وبأبيه. وكان كعب قد استجاب لطلب الحطيئة وذكره في شعره «فمن للقوافي . . .» ولكنه لم يذكر مزرَداً بن ضرار فغضب هذا الأخير وقال أبياتاً في كعب منها:

---

(١) أراد: غنمنا من محاربتهم الأجر والثواب، أما هم فراحوا نادمين على مخالفتهم لرسول الله ﷺ.

(٢) جزنا: قطعنا. البيض الخفاف: السيوف السريعة العمل.

(٣) اللات: صخرة مربعة شاعت عبادتها في الطائف. العزى: إحدى آلهة الجاهلية عبدها العرب قبل الإسلام إلى جانب اللات ومناة.

(٤) وقيل أن هذه القصيدة لبجير بن زهير شقيق كعب وحجتهم في ذلك أن كعباً أسلم بعد منصرف النبي ﷺ من الطائف.

فباستك إذا خلّفتني خلفَ شاعرٍ
من الناس لم أُكفىء ولم أتنخّلِ

فقال كعب هذه الأبيات في معرض الردّ عليه:

ألا أبلغا هذا المعرِّض أنّهُ
أيقظانَ قال القولَ إذ قال أمْ حَلَمْ

فإن تسألِ الأقوامَ عني فإنني
أنا ابن أبي سُلْمى على رَغْمِ مَنْ رَغِمْ

أنا ابنُ الذي قد عاش تسعينَ حِجَّة
فلم يَخْزَ يوماً في مَعَدٍّ ولم يُلَمْ[1]

وأكرمَهُ الأكفاءُ في كلِّ معشرٍ
كِرام فإنْ كذَّبتني فاسأل الأُمَمْ

أتى العُجْمَ والآفاقَ منه قصائدٌ
بَقِيْنَ بقاءَ الوحْيِ في الحَجَرِ الأصَمّ

أنا ابنُ الذي لم يَخْزُني في حياتِه
ولك أخْرِهُ حتى تغيَّبَ في الرَّجَمْ[2]

فأعطِيَ حتى ماتَ مالاً وهِمَّةً
وَوَرَّثَني إذ وَدَّعَ المجدَ والكَرَمْ

---

(١) المعروف أن زهيراً ولد في نجد نحو ٥٣٠ م وتوفي نحو ٦٢٧ م. مَعَدّ: جد جاهلي منه بعض القبائل العربية التي نشأت في شمالي جزيرة العرب.

(٢) الرجم: القبر، اللحد.

وكان يُحامي حين تَنْزلُ لَزبةٌ
من الدَّهرِ في ذِبيان إن حوضُها انْهَدَمْ[1]
أقولُ شبيهاتٍ بما قالَ عالماً
بهنَّ ومن يُشبِهْ أباهُ فما ظَلَمْ

ويأتي بفخره على ذكر أهله وعشيرته من المزنيين فيقول:

أعَيَّرتني عزاً عزيزاً ومعشراً
كِراماً بنوا ليْ المجدَ في باذخٍ أَشَمّ[2]
هُمُ الأصلُ منّي حيثُ كنتُ وإنّني
من المُزَنِيِّينَ المُصَفَّينَ بالكَرَمْ
همُ ضربُوكُم حين جُرْتُمْ عن الهدى
بأسيافهم حتى استقمتُمْ على القِيمْ
وساقتلُ منهم عُصبةٌ خِنْدِفيَّةٌ
فما لكَ فيهم قيدُ كَفٍّ ولا قَدَمْ[3]
هم منعوا حَزْنَ الحجازِ وسَهْلَه
قديماً وهمْ أجلوا أباكَ عن الحَرَمْ[4]

(١) اللَّزبة: الشدة. وقوله: إن حوضها انهدم، أي إن نالها سُوء أو ألمت بها نائبة.

(٢) الباذخ الاشم: الشامخ الرافع الرأس.

(٣) خندفية: نسبه إلى خندف امرأة الياس بن مضر، وخندفت الأم في أثره (أي هرولت)، أراد لا كف له يقود بها أرمتهم ولا قوم له في رياستهم.

(٤) الحزن: ما غلظ من الأرض.

هم الأُسدُ عند البأس والحشدُ في القِرَى
وهم عند عَقْدِ الجارِ يُوفُونَ بالذِّمَمْ[1]
فكمْ فيهمُ من سيِّدٍ متوسِّعٍ
ومن فاعلٍ للخير إن هَمَّ أو عَزَمْ
متى أدعُ في أوْسٍ وعثمانَ يأتني
مساعِرُ حرب كُلُّهمْ سادةٌ دِعَمْ[2]

المدح في شعره:

المدح في الجاهلية من الأبواب الرئيسة لاتصاله بالحياة القبلية. فقد كان على الشاعر الجاهلي ان يدافع عن قومه وأعراضهم، ويمدح ساداتهم وفرسانهم، ويطري فضائلهم ويمجد أعمالهم وبطولاتهم، ولذلك كانت القبيلة تغتبط وتستبشر إذا نبغ فيها شاعر، وإن لم يكن هذا الشاعر من الفرسان، لأن حماية الأعراض والأحساب لا تقل شأناً عن حماية الأرواح والأموال.

والشاعر الجاهلي مضطر كغيره من البدو إلى الترحل والنزول على قبيلة غريبة، ضيفاً أو جاراً، فتحسن هذه

---

(١) القِرى: الضيافة. يوفون بالذمم: يوفون بعهودهم لمن يستجير بهم.

(٢) أوس وعثمان: ولدا عمرو بن أدّ، وأمهما مزينة بنت كلب بن وبرة. المساعير: الذين يوقدون الحرب ويسعرونها. الدعم، الواحدة دعامة: ما يدعم بها البيت والبناء، أراد أنهم يوكل إليهم جليل الأعمال وعظيمها.

وفادته، وتبالغ في قراه وإيناسه وإكرامه، أو تجيره وتؤمنه من خوف، وتساعده على قضاء حاجته، فيرى أن من واجبه أن يشكر لها صنيعها، فيمدح السيد الذي أضافه أو أغاثه ، وهذا طبعاً لا يعد من باب التكسب، وإنما هو شكر على معروف، لا استجداء لصلة أو عطاء، ولم يُعرف التكسب بالمدح إلا عندما أخذ الشعراء ينزحون عن قبائلهم ويترددون في الأصقاع والأحياء الغريبة، ويقرعون أبواب الملوك والسوقة، مادحين مستجدين، هاجين من لا يحسن لهم العطاء، حيث هبطت منزلة هؤلاء الشعراء القبليين الذين أبوا أن يقبلوا الصلة ويريقوا ماء الوجه.

على أن المدح، وإن صار إلى التكسب الدنيء في أواخر العصر الجاهلي، فقد كان تأثيره عظيماً في الأشخاص والقبائل، يرفع شأن الخامل، وينشر ذكره بين الناس، وان التجاءطلاب السيادة إلى الشعراء في مفاخراتهم دليل على ما للشعر من الأثر البليغ في النفوس، وقد يختلف الشعراء في مبالغتهم بين مقل ومكثر، ولكنهم لا ينحون بحال من الأحوال إلى المحال، لأن طبع البدوي في صفائه ونقائه ينفر من الغلو المستقبح أو المستحيل إلا إذا رانت عليه العاطفة في حزن أو حماسة، فتخرج عندئذٍ هذه العاطفة به إلى غاية الإغراق حتى تُؤدي به إلى الكذب في بعض الأحيان، وحتى هذه

المغاليات كانت مأنوسة في المفاخر والمراثي أكثر منها في المدائح؛ ولكن تحوّل الشعر إلى التكسب جعل الشعراء يبالغون في تعظيم الأشراف والملوك، تملقاً لهم واستدراراً لأكفهم، ورغم هذا لم تكن السذاجة الفطرية تعدو تصوراتهم، ولا يختلف مدح الملوك في اعتماد الفضائل عن مدح السادات، لأن ملوك الشام والعراق لم يبتعدوا بذهنيتهم وأفكارهم عن سيد القبيلة، وإن أصابوا طرفاً من الحضارة. فالمدح الذي يصلح لصاحب القبة الحمراء، يصلح أيضاً لأمير جِلَّق والبريص، ولرب الخورنق والسدير[1].

وكان ملوك غسان ولخم يقربون شعراء البادية، ويجزلون لهم الصلات ليتغنَّوا بعظمتهم في الأحياء القريبة والبعيدة، فيتمكن بذلك سلطانهم في نفوسها، وينبسط نفوذهم على عشائرها، لأنهم كانوا يحتاجون إلى مؤازرتها في حروبهم واقتصادياتهم، وحراسة قوفلهم، فقضت عليهم السياسة بتقرب شعرائها وإكرامهم للاستفادة من مدائحهم، كما قضت عليهم بذلك ذهنية البدوي في ارتياحه إلى الحمد والثناء، فمدحهم الشعراء مثل مدحهم لسادات قبائلهم، وأضفوا عليهم سوابغ الأوصاف التي تعودنا سماعها منهم تحت الخيام.

---

(١) الخورنق والسدير: قصران للنعمان.

وكذلك المدح الديني ووصف الحفلات في الأعياد الكبرى، ويتخلل المدح الحضري الأخبار والأساطير، فنستدل بها على الثقافة التي اكتسبها شعراء البدو في رحلاتهم إلى المدن والأمصار، ومخالطتهم للشعوب المتحضرة.

ومما يُذكر للشاعر الجاهلي أنه حافظ على كرامته في مدح الملوك والسادات، فلم يتذلل لهم وهو في أشد الحاجة إلى رفدهم ومعروفهم.

وكان الشعراء في الجاهلية يستهلون مدائحهم، في الغالب، بذكر الديار الخالية وهو ما عُرِف بالوقوف على الأطلال، كانوا يقفون عليها للبكاء أو للتحية والسؤال، معددين المواضع التي توصل إليها، أو تحيط بها، متشوقين إلى أحبتهم يوم كانوا يسكنوها ويعمرونها، مشببين بهم، مستعيدين ذكرى فراقهم، ثم يرحلون على ناقتهم مفرجين همهم، قاصدين إلى الممدوح، فيصفونها عضواً عضواً وصفاً دقيقاً، يصورون سرعتها ونشاطها، ثم ينتقلون إلى المدح بعد هذه المقدمة التقليدية التي تلزم الممدوح أن يراعي حق الشاعر في قصده إليه دون غيره من مكان بعيد يعاني السهر والنصب، وسير النهار وسرى الليل، ولفح السَّموم، وربما

عمد الشاعر إلى ناقته فجعلها تتظلم شاكية مما يجشمها من مشقة الأسفار وتحمل أهواله ومخاطره.

وقد تلوم المرأة زوجها والبنت أباها على كثرة أسفاره وترحاله، خائفة عليه، وقد تكون المرأة رفيقة له في السفر وطلب الرزق.

لم يخرج كعب في مدحه عن هذا النهج في بناء قصيدته، إلا أنه لم يُعرف عنه أنه كان ممن تكسبوا بشعرهم، وقد مرَّ معنا قصيدته التي مدح فيها الرسول ﷺ، (بانت سعاد) ومدحه للأنصار، (من سرَّه كرمُ الحياة). وها هو يمدح علياً ابن أبي طالب، في قصيدة طويلة مطلعها: (هل حبل رملة) سار فيها على النهج الجاهلي المتعارف عليه، والذي تحدثنا عنه آنفاً، حيث يقول:

إن عَـلِيّـاً لـمـيـمـونٌ نَـقِـيـبـتُـهُ
بـالصّـالحـاتِ من الأفعـال مشهـور[1]

صِهْـرُ النَّبيِّ وخيـرُ النَّـاسِ مُفْتَخَـراً
فَكُـلُّ مَنْ رامـه بـالفَخْـرِ مفخـورُ

---

(١) النقيبة: السجية والطبيعة.

صَـلّى الـطَّهـورُ مـع الأُمّيِّ أَوَّلــهــمْ
قبـلَ المَعَـادِ ورَبُّ النّـاسِ مكفـورُ[1]

مُـقـاوِمٌ لـطُغَـاةِ الشِّـرْكِ يَضْـرِبُهُـمْ
حتَّى اسْتَقَـامُـوا ودِيـنُ اللهِ منـصـورُ[2]

بـالعَـدْلِ قُمْتَ أمِينـاً حيـن خَـالَفَـهُ
أهـــلُ الـهــوى وَذَوُو الأهــواءِ والـزورُ

يــا خيـرَ مَنْ حَمَلَتْ نَعْـلاً لـه قَـدَمٌ
بعـد النَّبيِّ لـدَيْـهِ البَغْـيُ مهجـورُ

أعــطاك رَبُّــك فـضـلاً لا زوال لــه
مِــنْ أيـنَ أنّــى لــه الأيّـامَ تـغـيـيـرُ

الهجاء في شعره:

والهجاء كالمدح باب رئيسي متصل بسياسة القبيلة وحياتها الاجتماعية، لأنها كانت تدفع شاعرها إلى الذود عن أعراضها، والرد على الشعراء الذين يهجونها أو يحاولون النيل منها، فينشر مثالب[3] أعدائها، معدداً انكساراتهم.

---

(١) الطهور: أراد علياً عليه السلام. الأمي: النبي محمد ﷺ أراد أن علياً كان أول السابقين إلى الأسلام.

(٢) حتى استقاموا: أي ثابوا إلى رشدهم.

(٣) مثالب: معايب.

وكان على الشاعر أيضاً أن يذود عن حلفاء قبيلته لما بينهم وبينها من تبادل منفعة في الدفاع المشترك، وإذا استجار شاعر بقبيلة واعْتُدِيَ عليه، عنّفها وهجاها ليحرضها على أخذ حقه، لأنه يعلم حق العِلم أن الجوار مقدس عندهم لا يجوز انتهاكه أو التفريط فيه، كما فعل كعب عندما خرج أخوه بجير والحطيئة ورجل من بني بدر في رحلة صيد وهم عُزَّلٌ من السلاح، فلقيهم زيد الخيل في عدَّة، فأخذهم ولكنه خلّى سبيل الحطيئة لفاقته وفقره. وافتدى بجير نفسه بفرس كميت، قيل إنها لأخيه كعب، وافتدى البدري نفسه بمائة من الإبل، فلما بلغ الخبر كعباً، وكان يومها ينزل في بني ملقط، قال هذه الأبيات يحرّضهم على أخذ الكميت من زيد:

فيـا راكبـاً إمـا عَـرَضْـتَ فَبَـلِّغَنْ
بني مِـلقَطٍ عني إذا قيـلَ مـن عَنـى[1]

فمـا خِـلتُكـم يـا قـومُ كـنـتـمْ أذِلّـةً
ومـا خِـلتُكُمْ كنـتمْ لـمخـتـلسٍ جَـنـى

لَقَـدْ كنتمُ بـالسَّهـلِ والحَـزْنِ حيَّـةً
إذا لـدَغَتْ لم تَشفِ لـدغَتَهـا الـرُّقى[2]

---

(١) بني ملقط: حيّان من طيء. عنى: أراد وقصد.

(٢) الحزن: ما غلظ من الأرض. الرُّقى: الواحدة رُقية: هي أن يستعان بقوى تفوق القوى الطبيعية للحصول على أمر، وهو يشير بذلك إلى منعة بني ملقط ومكانتهم بين القبائل.

فإن تغضبوا أو تُدركوا لي بذِمَّةٍ
لعمرُكم لمثلُ سعيكُمُ كفى[١]
لقد نالَ زيدُ الخيلِ مالَ أخيكمُ
وأصْبَحَ زيدٌ بعد فَقْرٍ قَدْ اقتنى
وإنّ الكُمَيْتَ عند زيدٍ ذمامةٌ
وما بالكُميتِ مِنْ خَفَاءٍ لمن رأى[٢]

وخرجوا بالهجاء إلى التكسب كما خرجوا إليه بالمدح، فكان الشاعر منهم يُدعى إلى قبيلة غريبة عنه، فتضيفه وتكرمه ليهجو أعداءها، على أن الذين تكسبوا بالمدح أكثر من الذين تكسبوا بالهجاء، وأشد الهجاء عندهم ما كان قائماً على التفضيل، خصوصاً بين الأقرباء، وخاصةً إذا كان كلٌ منهم يطمع في السيادة.

إن الشاعر الجاهلي كان يتوخى، في الغالب، إسقاط المهجو من منزلته الاجتماعية، بأن ينزِع عنه الفضائل التي يحب البدوي ان ينعت بها ليكون أهلاً للسيادة في قومه، فيرميه بالجهل والحمق والجبن والبخل والغدر، وقد يغمز من نسبه ليخرجه من قومه، أو يفضل أقرباءه عليه ليجعل لهم السيادة من دونه. ومثل هذا الهجاء له تأثير عظيم في

---

(١) أو تدركوا: أي إلى أن تدركوا.
(٢) الذمامة: الحق والحرمة.

نفوسهم، يستعظمون أمره ويخشون أصحابه، هذا فضلاً عن الهجاء الذي يهتك حرمات النساء وربّات الخدور ويَصُب الشتائم والقبائح، فإنهم كانوا يذمون الناطقين به ويمقتونهم، قال خلف الأحمر: «أشدّ الهجاء أعفه وأصدقه». ويستحسن منه ما أخرجه الشاعر مخرج التهكم والتصوير الهزلي، فإنه يبلغ الشاعر بذلك مأربه من المرء الذي يهجوه ويضحك منه السامع لسُخْريته وعبثه وظرفه، وهذا ما نسميه الهجاء اللاذع.

وقد يأتي الهجاء عن دافع شخصي لا بعامل قبلي أو تكسبي، ولربما نالت الشاعر أذية من شخص ما، فيندفع إلى الانتقام منه بشعره. وأهاجي الجاهلين كمدائحهم صادقة التعبير عن ذهنية البدو وعاداتهم وتقاليدهم، وما تواضعوا عليه من الصفات المذمومة والمحمودة، فقد كانت القبيلة تعير الأخرى بأن شعراءها يرحلون بمدحاتهم إلى الغرباء، وقلما خلت قبيلة من شاعر يرحل بشعره. وكانوا يعيِّرون الفارس إذا فرَّ عن عشيرته في الحرب، مع أنهم لا يستنكفون من التمدُّح بالفرار، إذا كان فيه منجاة للفارس من الهلاك. ويقبحون الغدر ويهجونه، قيل إنهم كانوا إذا غدر غادر فالعنوه! غير أنهم كانوا يستحلونه عند طلب الثأر لما يلحقهم من المذمة والمذلة في تركه. كما قد تسمع بعض الشعراء يرمي مهجوَّه

بالضعف، إذا عجز عن الظلم والغدر. والظلم عندهم مكروه إذا أصاب الاقرباء، محمود إذا أصاب الغرباء. وكان العرب كما رأينا يحتقرون الصناعات ويذمون أصحابها، وينسبونهم إلى الخمول والضعف، لأنه كان في اعتقادهم ينبغي للفارس أن يكسب رزقه بسيفه وغزواته. ولم تكن التجارة أحسن حظاً عندهم، وهي لم تعرف في غير المدن كمكة ويثرب واليمن، فهجيت قريش بها لأن معظم أهلها كانوا تجاراً. وكانوا إذا اشتهرت قبيلة بأكلة عُيرت بها، ولو كانت من طيب الطعام، ومن عادة العرب أن يتهاجوا بكل شيء أفرطوا في استعماله، فقد هجيت بنو تغلب بكثرة روايتها معلقة عمرو بن كلثوم مثلاً، وقريش هجيت بالسخينة[1]. ولربما عُيرت القبيلة بعيب رجل واحد منها. قال الجاحظ في كتابه البخلاء: «والعرب إذا وجدت رجلاً من القبيلة قد أتى قبيحاً، ألزمت بذلك القبيلة كلها، كما قد تُمدح القبيلة بفعلٍ جميل، وإن لم يكن ذلك إلا بفعل رجل واحد منها».

وكان الكرم من أسباب السيادة، فأكثروا من هجو الاشراف بالبخل والكزازة لإسقاط منزلتهم بين الناس، ويتبع ذلك ذكر النار وخمودها لقلّة طبائخهم، أو لخشيتهم أن يعشو إلى ضوئها الضيفان، وكذلك ذكر الكلب ونباحه في وجه الزائر

(١) السخينة: طعام رقيق يتخذ من الدقيق، لقبت به قريش.

لأنه لم يألف الغرباء عند صاحبه، وسكوته عن النباح ليلاً لئلا يهدي الطارق ليلاً أو الحائر، فاتهموا البخلاء بتخنيق الكلاب.

وكان للهجاء تأثير في النفوس، فقد كانت السادات والقبائل تتضور منه، ولا تصبر عليه، لسيرورة الشعر وكثرة رواته. وافضل الهجاء ما جاء في الدفاع عن سياسة القبيلة والرد على خصومها، أو ما جاء في ذم الاخلاق الرديئة وخلا من الفحش وتمزيق الاعراض.

ولقد قَلَّ الهجاء في شعر كعب إلا ما كان من هجاء زوجته والشيب، رغم ما قيل عنه إنه كان رجلاً شريراً شرساً في جاهليته ـ طبعاً ـ لا يصيب خيراً من وجهٍ توجَّه إليه، ولا ينمي له مال، فعتبت عليه امرأته، وآذنته بالظعن والفراق، فقال:

إن عِرْسِي قد آذنتني أخيراً
لم تُعرِّج ولم تُؤَمِّرْ أميرا[١]
أجهاراً جاهرْتِ لا عَتْبَ فيه
أَم أَرَادتْ خيانة وفجورا[٢]

---

(١) العرس: الزوجة، الحليلة. آذنتني: أعلمتني. لم تعرّج: لم تعطف. وقوله: لم تؤامر أميراً، اي لم تشاور في ذلك.

(٢) جاهرت: أعلنت، وجاهر مجاهرة وجهاراً بالشيء: كاشفه به ولم يخفه. لا عتب فيه. اي لا يعيبك.

مـا صَـلاحُ الـزَّوجين عـاشـا جميعـاً
بَـعْـدَ أنْ يصْـرِمَ الـكبيـرُ الكبيـرا[1]
فـاصبـري مـثـل مـا صَبَرْتُ فـإنّـي
لا أخَـال الـكـريـمَ إلاّ صـبـورا . . [2]

وهو كما ترى أقرب إلى اللوم والعتاب منه إلى الهجاء.

وهذه أبيات يلوم فيها امرأته لأنها لامته حين نزل به أضياف، فنحر لهم بكراً كان لها. فقال:

أَلاَ بَكَـرتْ عِـرسي تُـوَائم من لحى
وأَقـرِبْ بـأحـلام النِّسـاءِ مِنَ الـرَّدَى[3]

وقوله هنا: وأقرب بأحلام النساء من الرَّدَى: إنما أراد أن حلمهن يصير إلى فساد؛ وفي المثل: «لب المرأة إلى حمق» وهو يضرب عذراً للمرأة عند الغيرة.

أفـي جَنْـبِ بَـكْـرٍ قـطعـتـني مَـلامـةً
لعمـري لقـد كـانت مـلامتهـا ثِنَى[4]

---

(١) الزوجان: الرجل والمرأة. يصرم: يهجر.

(٢) إنما أراد: أصبري على كبري كما صبرت على كبرك، لأن الصبر من صفات الكرام.

(٣) عرسي: امرأتي. توائم: تجاري وتساير. لحى: لام.

(٤) البكر: الفتى من الإبل. ثنى مرّة تلو مرة، يشير إلى لوم امرأته له.

ألا لا تـلُومي ويـبَ غيـرك عـاريـاً
رأى ثوبَه يـوماً من الـدَّهرِ فـاكتسى. .[1]

وقوله أيضاً:

ألاَ بَـكَـرَتْ عِـرْسي تـلُومُ وتَـعْـذِلُ
وغيـرُ الـذي قـالـت أَعَـفُّ وأَجْـمَـلُ
ولَـمَّـا رأتْ رأسـي تـبـدَّل لـونُـهُ
بيـاضـاً عـن الـلونِ الـذي كـان أوَّلُ
أَرَنَّتْ من الشَّيبِ العجيب الـذي رَأَتْ
وهـل أنتِ مني وَيْبَ غيـرِكِ أمثـلُ[2]
كـلانـا عَـلَتْـهُ كـبـرةٌ فـكـأنَّـمـا
رَمَتْـهُ سِهـامٌ في المفـارِقِ نُصَّـلُ. .[3]

فالهجاء عند كعب قليل جداً فلا تكاد تلمح في شعره هجاء عن دافع شخصي أو بعامل قبلي أو تكسبي وإنما هو هجاء اشبه بالعتب واللوم منه بشيء آخر، فلا قساوة ولا فحش تلحظ في هجائه.

(١) يقول: لا تلومي في أن نحرت بكراً أو كسوت عارياً فاكتسى. ولعله أراد أنه كان عارياً من ثوب الكرم لأنه لم يجد ما يجود به على اضيافه، فلما رأى ثوب الكرم، وهو نحر بكرها، لبسه.

(٢) أرنت: أظهرت الخوف والجزع. يقول لست بأمثل مني فقد أصابك ما أصابني من الشيب والكبر. ويب: دعاء يفيد الذم والشتم.

(٣) فقد شبه الشيب بسهام لا نصال لها وقد ألبسه خماراً أبيض وذهب بسواد شعره.

الرثاء في شعره: يشغل الرثاء جانباً عظيماً من الشعر القبلي لأنـه، في أكثره، مصـروف إلى سادات العشيـرة وفرسانها الذين لهم مآثر محمودة، فليس موتهم موت فرد واحد، وإنما هو بنيان قوم تهدم، وكلما دنت القرابة بين الشاعر والميت ازداد الرثاء حسرة وتفجعاً، وأروعه ما نُدب به الابطال المجندلون في ساحات القتال، فإن الشعراء، في رثائهم والبكاء عليهم وفي تعداد مناقبهم، يثيرون الاحقاد ويشحذون العزائم والهمم، ويهيجون القبيلة للحرب والأخذ بالثأر، وفيه تتدفق العاطفة لوعةً وألماً، كما يشتد الغلو في ذكر أوصاف الميت وتعظيم المصاب به، فليس إلا الشعور يفيض دمعاً وأسىً عليه، وفخراً ومباهاة به، ومدحاً وتأبيناً له، فتتفاعل مشاعر مختلفة من خسارة وحزن، واعجاب واعتزاز، وضغن ونقمة. والتفجع والتهويل شائع عنـدهم في رثاء الملوك والرؤساء لا يقتصر فقط على الاهل والاقارب بل يتعدى ذلك إلى كل عزيز في القبيلة أو غيرها. وهم يصفون الميت بجميع الفضائل التي يفاخرون ويمدحون بها، غير أنهم يجعلون في كلامهم قرائن ودلالات تفيد أن المقصود به رثاء لا مدح، بما يتخلله من عبارات فيها ذكر المصاب والدفن والقبر، وفيه التلهف والتفجع ونداء الميت. وكثيراً ما ينعون تلك الفضائل مع الميت؛ فكأنها ذهبت بذهابه، فليس

بعده من يجيب إلى النَّدى، ولا من يحمي النساء والاموال ويغيث الملهوف، فقد دفنت المكارم بدفنه، وغُيِّبت الاخلاق الفاضلة الحميدة الطيبة في ثراه.

قال ابن رشيق في العمدة: «ومن عادة القدماء أن يضربوا الامثال، في المراثي، بالملوك الأعزَّة، والامم السالفة، والوعول الممتنعة في قلل الجبال، والاسود الخادرة في الغياض، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار، والنسور والعقبان والحيَّات لبأسها وطول أعمارها،وذلك في أشعارهم كثير موجود، لا يكاد يخلو منه شعر.» وإنما اتخذوا هذا الاسلوب ليستخلصوا حكمة ساذجة، وهي أن هؤلاء الملوك والابطال والجبابرة من الشعوب الخالية لم يعفّ الموت عنهم. ومثلهم الحيوانات الضارية، أو الممتنعة في الجوّ والآكام والاودية، أو الطويلة الاعمار. ولو نجا حيٌّ من الموت لكان أولئك الناس وتلك الحيوانات أولى من غيرهم بالنجاة. فيجدون عزاء لأنفسهم بضرب هذه الامثال التي تجعلهم أحياناً لا يندفعون مع العاطفة الجازعة المتفجعة، بل يستسلمون إلى القدر الذي يؤمنون بسلطانه ويخضعون لأحكامه القاسية راضين على كره بما قُسم لهم.

ولكن من الملاحظ أن الرثاء في شعر كعب يكاد أن يكون

نادراً، ولعل القصيدة الوحيدة التي قالها في هذه المناسبة هي في مقتل جؤي بن عائذ من مزينة، ورواية ذلك أن جؤياً هذا مرَّ على الأوس والخزرج وهم يقتتلون ـ وكانت الأوس من حلفاء مُزينة ـ فأُصيب. فمر به ثابت أبو الشاعر حسّان بن ثابت، فقال: يا أخا مُزينة، ما طرحك هذا المطرح؟ فقال جؤي وهو يجود بنفسه: أعطي الله عهداً لَيقتلنَّ بي منكم خمسون ليس فيهم أعور ولا أعرج.

وسارت كلمة جؤي هذه حتى اتت «عمق» وهو موضع قرب المدينة، وهي بلاد مزينة، فثاروا يريدون الخزرج طالبين بدم جؤي، والتقى الجمعان بيثرب فاقتتلوا فقتل من الخزرج عدّة، وأُسر ثابت بن المنذر، فأقسم مُقرِّن وهو رئيس بني مُزينة أن لا يأخذ فداءه إلا تيساً أسود لا قرن له. ولما رأوا أنه لا بدَّ من ذلك جِاءَ بتيس أسود أجمٌ، فذبحه مُقرِّن بسوق عكاظ وأطعم الناس لحمه. وقال ابن الكلبي: إنما كان ذلك ببعاث، والمأسور هو حسان نفسه وليس ثابت أبوه. وزاد بقوله: ولما حلف مُقرِّن أنه لا يقبل الفداء إلا تيساً أسود أجمٌ، أتوا حسان فقالوا: ما ترى؟ وغضبوا. فقال لهم: ما لكم تغضبون! ادفعوا إلى القوم أخاهم، أي التيس الاسود الاجمٌ، وخذوا منهم أخاكم، أي حسان بن ثابت. حيث يقول:

لـقـد ولّـى الـيّـتـهُ جُـؤَيٌّ
مـعـاشِـرَ غيـرُ مـطلُولٍ أخُـوهـا[1]

فـإن تَـهـلِكْ جُـؤَيٌّ فـكُـلُّ نـفسٍ
سَـيـجْـلِبُـهـا كـذلـك جالـبُـوهـا

وإن تـهـلِكْ جُـؤيٌّ فـإنَّ حـربـاً
كـظنُّـكَ كـان بعـدَك مُـوقِـدُوهـا[2]

ومـا سـاءَتْ ظُـنُـونُـكَ يـومَ تـولي
بـأرواحٍ وَفـى لـكَ مُـشْـرِعُـوهـا[3]

كـأنَّـكَ كـنـت تـعـلمُ يـومَ بُـزَّتْ
ثـيـابُـك مـا سَيَلْقَى سَالِبُـوهـا[4]

لِـنَـنْـذِرَكَ والـنَـذورُ لـهـا وفـاءٌ
إذا بَـلَغَ الـخَـزايَـةَ بـالِـغُـوهـا[5]

(١) اليته: الحلفه. يقول: لقد ولّى جؤي يمينه قوماً لا تذهب دماؤهم باطلاً.

(٢) قوله: كظنك، أي كان موقودها بعدك كظنك. فجعلها خبر كان.

(٣) تولي: تقسم، يقول: ما ساء ظنك ولا خاب يوم أقسمت بأرماح وَفَى لَكَ مسدّدوها فصدق ظنك بهم.

(٤) بُزّت: سُلِبَتْ.

(٥) الخزاية: الهوان والذل. يقول: لقد استرسل أهل الخزي بغيهم فوجب الوفاء لنذرك.

... ولـو بَـلَغَ الـقـتِيـلَ فِـعـالُ حيٍّ
لَـسَـرَّكَ من سيـوفِـكَ منتضُـوهـا[1]

الغزل في شعره: يقوم أكثر الغزل الجاهلي على الوصف والتشبيب، وأقلُّه ما جاء قصصياً يحمل ذكريات المغامرات الغرامية، بعضه عفيف شريف، وبعضه لا يخلو من فحش ورذيلة، وخاصة شعر المترفين منهم. كما تسيطر عليه المادة من جميع نواحيه، ليس فيه من نفحات الروح إلا شيءٌ يسيراً لا يكاد يُحس. وليس الغزل عندهم فناً مستقلاً، وإنما هو غرض من الاغراض المتعددة التي تشتمل عليها قصيدتهم، ولكن له حق الصدارة يُستهل به ثم يُنتهي منه إلى غيره.

ويبدأون غزلهم في الغالب بذكر الطلول الدارسة التي خلت إلا من الدمن والرياح التي تلعب بها، حيث عفت آثارها الامطار، تسرح بها الآرام مطمئنة لخلوها من سكانها. ثم يذكرون بعد ذلك الفراق وكيف تم انتقال الظعائن، فتشجى نفوسهم، وتفيض عيونهم بالبكاء، ويستعيدون صورة الحبيب النائي آخذين بوصفه وتمثيله، ذاكرين اسمه الحقيقي، أو كانين عنه بغيره حرمة واستحياء.

---

(١) يقول: لو بلغك أيها القتيل أفعال قومك من بعدك، لسرّك ما فعلوه ولأعجبت بصنيعهم، والغاية أنهم وفوا بما أقسم به، وما خيبوا له ظناً.

والجاهلي شديد الشغف بذكر محاسن المرأة يصف أعضاءها وملامحها ومزاياها ويحيطها بأحسن ما عنده من التشابيه، فهي كالبيضة ودرة الغواص في صيانتها وصفائها. وشعرها الفاحم كعناقيد النخل، طويل إذا أرسلته ينعفر. ووجهها أبيض ضارب إلى الصفرة، يضيء كالشمس أو كالبدر أو كالنار، أو كمنارة الراهب. يؤثرون العين السوداء والكحلاء والحوراء، التي قد تشبه عين الغزال والمهاة. ويستحسنون بياض الاسنان، ويشبهونها بالبرد، ويمدحون الثغر ببرودة الريق، وحلاوة الطعم، وطيب النكهة لا تفسده نومة الضحى. ويشبهونه بالخمر وبالمسك وبالروضة الأُنُف. ويعجبهم الجيد الأتلع ويرون له شبهاً في جيد الرئم، والخصر الأهيف، والكشح الهضيم، والردف الثقيل، والقامة اللدنة. ويشبهون الخصر بالجديل والردف بالكثيب، والقامة بالغصن أو بالرمح. ويصفون الانامل بالرقة واللطافة حتى لتكاد تنعقد، ويشبهونها بالاساريع[1].

ولا تحمد الساق عندهم إلا إذا كانت عبلة[2] صامتة الحِجْل ريًا المخلخل. وخير النساء الحرة المنعمة، الكسول

(١) الاساريع: دود ناصع البياض أحد طرفيه يضرب إلى الحمرة طري الملمس ناعمه.

(٢) عبلة: ضخمة كثيرة الشحم واللحم.

التي تنام الضحى، ولا تقوم للعمل، القصيرة الخطى، البطيئة إذا مشت انبهرت لكثرة ما عليها من اللحم. ومن صفاتها أن تكون حلوة الحديث عذبة الكلام يتساقط منها تساقط الحلي، حَصاناً عفّة، وفيه لزوجها كاتمة اسراره، لا تتدخل فيما ليس يعنيها من أسرار الجيران. ولكن غزلهم في كثرته يدل على سوء ظنهم بالمرأة، وشدّة ما يعانون من غدرها وتبديلها الاصحاب ونفورها من الزوج إذا كبر وشاب. وطالما حاول الشاعر منهم أن يردَّ تهمة الكِبرَ بذكر همته ومقدرته على اللهو ولفت انتباه النساء، فهذا كعب يصف حبيبته سعاد بقوله:

فما تَدُومُ على حالٍ تكونُ بها
كما تَلَوَّنُ في أثوابها الغولُ
ولا تمسّك بالعهدِ الذي زعمتْ
إلا كما تمسك الماءَ الغرابيلُ

أو قوله متغزلاً بحبيبته رملة:

نَشْفَى بها وهي داءٌ لو تُصَاقِبُنا
كما اشتفى بِعِيادِ الخمرِ مخمورُ[1]

---

(١) تصاقبنا: تدانينا. اشتفى: بريء من دائه. عياد الخمر: العودة إليها.

مـا روضـةٌ من ريـاض الحَـزْنِ بـاكـرِهـا
بـالـنَّبْـتِ مُخْـتَلِفِ الألـوانِ مـمـطورُ[1]
يــومـاً بــأطـيبَ مـنهـا نَـشْـرَ رائـحــةٍ
بعــد المـنــام إذا حُبُّ الـمعـاطيــرُ[2]
مــا أَنَس لا أنْـسَهــا والــدمــع مُـنْسَرِبٌ
كــأنَّــه لُـؤْلـؤٌ في الـخَـدِّ مــحـدورُ[3]

ومن رقيق قوله:

يـا ليتَ شِعـري وليتَ الـطَّيرَ تُخبـرُني
امِثْــلَ عِشْقِي يُــلاقي كُــلُّ مَنْ عَـشِقَــا
إذا سـمـعـتُ بِــذِكْــرِ الـحُـبِّ ذكَّــرَنـي
هنــداً فقَــدْ عَلِقَ الأحشــاءَ مــا عَـلِقَــا
كــم دُونَهــا مِـن عــدُوٍّ ذي مُكــاشَـحَـةٍ
بــادي الشَّــوارةِ يُبْــدي وجْهُــه حَنَقَــا[4]

(١) الحزن: طريق بين المدينة وخيبر: قال أبو عمرو: الحزن ما غلظ من الأرض. باكرها ممطور: أنْصَبَّ عنيها من الصباح الباكر.

(٢) المعاطير، الواحد معطار: الذي من عادته أن يتعهد نفسه بالطيب.

(٣) محدور: منحدر.

(٤) المكاشحة العداوة المضمرة والمقاطعة. الشوارة: الزينـة، وفي الأصل «الشرارة».

على أن الشاعر الجاهلي في ماديته كان لا يُعْنَى كثيراً بوصف أخلاق المرأة، وعرض نفسيتها، وتحليل عواطفها، كما لا يعنى بشكل عام بتصوير لواعج نفسه، وتلمّس خفاياها، واستخراج الأهواء المتدفقة فيها. فقد كان يحس كل الإحساس بالألم والخيبة، واللذة والأمل، فتعبر عن هذه المشاعر المرهفة دموعه وابتساماته، وتلهفه وابتهاجه، أكثر مما تعبر عنها صوره وألوانه. فهو يحسن تصوير الأشياء الظاهرة المرئية التي تبعثُ فيه الشعور والاشتياق، ولا يحسن بالتالي تصوير ما في النفس من خوالج وانفعالات. ولربما ظهرت شخصية المرأة في شعرهم عامة مشتركة لتواطئهم على أوصاف رتيبة لا يجاوزونها، ولا يحيدون عنها، فقلما تجد فرقاً بين واحدة وأخرى من عرائس الإلهام.

هذه أهم الموضوعات التي وردت عند الشعراء الجاهليين ومنهم شاعرنا كعب بن زهير رأينا أن نتكلم عنهم جميعاً بشكل عام وعن كعب بشكل خاص توخياً للإفادة والمنفعة، لنُعطي فكرة واضحة كيف نظر هؤلاء الشعراء عامة إلى هذه الموضوعات وإلى أي حد شاركهم فيها شاعرنا كعب.

بناء القصيدة

ا

كعب كغيره من الشعراء الجاهليين كان أسير النمطية والاتباعية اللتين أوقعتا الشعر الجاهلي في التكرار وفي استهلاك الأحداث والصور، ونعزو ذلك إلى تمسّك العرب بالأعراف والتقاليد، وإلى عقليتهم الضيقة المحدودة وما سادها من مفاهيم جعلت المساس بتلك الأعراف والتقاليد خروجاً على الطاعة وشذوذاً على القاعدة والسنن، وقد كانت العصبية والقبلية متحكمتين في الناس إلى الحدّ الذي جعل الخروج عليهما تمرداً على التماسك والوحدة التي كانت ضرورية في مجتمع قبلي تسوده شريعة القوة وما يتبعها من قتلٍ ونهب وسلب، ولذلك فقد ترسّخ في أذهان الناس مفهوم الولاء لكلّ الأعراف والتقاليد، وتجاوز ذلك إلى الأدب ومعايره، فكان الخروج على أنماطه ضعفاً في شاعرية الشاعر، وقصوراً في خياله وتعبيره، كما كان معيار الفحولة في المحافظة على تلك الأنماط والسير على هديها ومنوالها الذي يرفع ويضع بقدر الإجادة في الالتزام بذلك النهج، وليس بقدر الخروج عليه، ولذا كان الشعر الجاهلي متشابهاً

في موضوعاته وأغراضه، وكان على الشعراء ـ ومنهم كعب ابن زهير ـ وجوب الالتزام بذلك المنهاج الذي جعلهم ينخرطون فيه موالين ومدافعين، حتى أضحوا جميعهم إلاّ ما ندر من السالكين والمؤسّسين والدائرين في فلكه، ومن ثم كان الخروج تمرّداً يستوجب الخلع والافراد، بل السخرية والاستهزاء.

وإذا عدنا إلى شعر كعب وتفحّصنا أغراضه الشعرية وأساليبه البنائية، فإننا نجد ذلك الالتزام الذي ذكرناه واضحاً كلّ الوضوح في سائر قصائده، ما عدا مقطوعات صغيرة لا تتجاوز في أطولها أصابع اليد الواحدة أفردها الشاعر لبثّ شكوىً من دهره أو حكمةً أراد لها أن تشيع وتذهب مثلاً بين الناس، فقد حافظ كعب في كلّ قصائده على السنن التقليدي الذي كان يفرض على الشاعر استهلالاً معيّناً يتذكّر فيه منازل الأحباب ومظاعنهم، ويحمّله أشجان نفسه وحنينه إلى أوقات الوصل واللقاء. ومن ثم يعمد إلى وصف الطبيعة مبتدئاً بوصف الناقة أو الحصان، وهما في نظره خير وسيلة توصله إلى غاياته، وتحقق له رغباته وأمانيه، ويعرّج بعد ذلك على وصف البيئة الصحراوية وحيواناتها ذاكراً مكابدته في مهامها، وينتهي أخيراً إلى ذكر موضوعه الخاص الذي لا يفرد له في أبياته إلاّ يسيراً من القول، ولمحاً من النظم، يفيدان الغرض

ويدلّان عليه، ولكنّهما لا يلمّان به إلّا لماماً سطحياً يمكن القارىء أو السامع من استحضاره أمام العين أو الذاكرة، دون أن يعيره الشاعر ذاته، ويحمّله ما يجب أن يحمل من معان وأبعاد.

والحقّ أن كعباً قد دقّق في التزام ذوق أسلافه ومعاصريه من الشعراء، فكان رسّاماً لمشاهد اعتاد الشعراء على رسمها وأحبّ هو أن يمسك بريشته ويُدلي بدلوه ويتفحّص بعينيه ألوانها ومناظرها ومقوّماتها، ويتقرّى بيديه خطوطها وأطرها ليرسم لنا صوراً طريفة تحمل أحياناً ذوقه الخاص، إلا أنها في أكثرها تقع في رتابة التفاصيل والأحداث والتحايل على أساليب الصياغة الشعرية التي تزيد خطّاً هنا وتعبيراً هناك، وفذلكةً تبيِّن بما لا يدعو إلى الشك كم استغرق «الجمل والناقة من الشعر وخيال الشاعر، وكم استغرق وصف الأرض سهلها وحزنها» من وقته وتلاعبه بالألفاظ والعبارات، وظلّ ذلك كلّه في إطار الوصف التقريري الذي يرسم ما تقع عليه العين، وينقله نقلاً أميناً في أكثر جزئياته وتفاصيله، معتمداً على الملاحظة الذاتية الحسيّة التي «أُفرغت في قوالب تحدّرت إلى الشعراء من الأجيال القديمة، ومن هنا لم يفسح هذا الفن مجالاً واسعاً أمام الشعراء لإظهار شخصياتهم إلا في القليل النادر، حيث تكون المفارقة صريحة جدّاً».

ولنستمع إلى كعب في نموذج من قصائده لنتحقق من ذلك الذي أسميناه التزاماً في شعره، ولنقف على الأطر البنائية للقصيدة عنده، يقول كعب:

أمن أم شدّادٍ رسوم المنازل
توهمتها من بعد سافٍ ووابل[1]

وبعد ليالٍ قد خلونَ وأشهرٍ
على إثر حولٍ قد تجرَّم كامل[2]

أرى أمَّ شدّادٍ بها شبه ظبيةٍ
تطيف بمكحول المدامع خاذل[3]

أغنَّ غضيضِ الطرف رخصٍ ظلوفه
ترود بمعتمٍّ من الرَّمل هائل[4]

وترنو بعيني نعجة أمِّ فرقد
تظلُّ بوادي روضةٍ وخمائل[5]

(١) الرسوم: الآثار. والسّافي: الريح، والوابل المطر.

(٢) الحول: العام. وتجرُّم: تمّ وانقضى.

(٣) الخاذل: الذي يتخلّف عن أمه.

(٤) الأغنّ: صفة للغزال الذي في صوته غنّه، وغضيض الطرف: فاتره، والرّخص: اللين، وترود: ترعى، والمعتم: الذي لبس العمامة، أي أن الرمل لبس عمامة من النبات.

(٥) ترنو: تنظر، النعجة: البقرة الوحشية، والفرقد: ولد البقرة.

وتـخـطو عـلى بـرديّتيـن غَـداهُـمـا
أهـاضيبُ رجّـافِ العشيّـات هـاطـل[1]
وتـفتـرُّ عـن غـرِّ الـثـنـايـا كـأنّـهـا
أقـاحٍ تـروّى من عـروق غـلاغـل[2]
لـيـالي نـحتـلُّ الـمَـراض وعـيشُـنـا
غـريـرٌ ولا نـرعى إلى عـذل عـاذل[3]
فـأصبحت قـد أنكـرت منهـا شمـائـلاً
فمـا شئت من بخلٍ ومن منـع نـائـل[4]
ومـا ذاك عـن شيءٍ أكـون اجتـرمتـه
سـوى أنّ شيباً في المفـارقِ شـاملي[5]
فـإن تصـرميني وَيْبَ غيـرك تـصـرمي
وأوذنـت إيـذان الخـليط المـزايـل[6]

---

(١) الأهاضيب: جمع أهضوبة وهي الدُفعة من المطر، والرجاف: المضطرب المصوّت كالرّعد وغيره.

(٢) تفترُّ: تبتسم. وغرُّ الثنايا: بيض الاسنان في مقدم الفم. والغلاغل: من تغلغل الماء في الشجر: غلُلها.

(٣) المراض: موضع على طريق الحجاز من ناحية الكوفة.

(٤) الشمائل: كرم الأخلاق، والنائل: العطاء.

(٥) أجترمته: اقترفته.

(٦) تصرميني: تهجريني وتقطعين حبل مودتي، ويب: دعاءٌ عليها بمعنى الهلاك والمزايل: المفارق.

إذا ما خليلٌ لم يصلك فلا تقم
بتلعته واعمد لآخر واصل[١]

ومستهلكٍ يهدي الضّلول كأنّه
حصير صناعٍ بين أيدي الرَّوامل[٢]

متى ما تشأ تسمع إذا ما هبطته
تراطن سِربٍ مغرب الشمس نازل[٣]

روايا فراخٍ بالفلاة توائمٍ
تحطّم عنها البيض حُمر الحواصل[٤]

توائم أشباهٍ بغير علامةٍ
وضعن بمجهولٍ من الأرض خامل

وخرقٍ يخاف الرّكب أن يدلجوا به
يَعَضُّون من أهواله بالأنامل[٥]

---

(١) التلعة: مسيل مرتفع إلى بطن الوادي.

(٢) المستهلك: الطريق الوعر لكنه واضح المعالم. والرّوامل: النساء الحاذقات في صنع الحُصُر.

(٣) التراطن: اللغط والصياح. والسِّرب: القطيع من القطا وغيره.

(٤) روايا فراخ: أي التي تستقي الماء فراخها. وتوائم: جمع توأم، أي اثنان اثنان. وتحطم: تكسر.

(٥) الخرق: المتسع من الأرض. والادلاج: سير الليل كله.

مخوفٍ به الجنّانُ تعوي ذئابه
قطعت بفتلاء الذّراعين بازل[١]
صموت السُّرى خرساء فيها تلفّتٌ
لنيأة حقٍّ أو لتشبيه باطل[٢]
تظلُّ نسوع الرّحل بعد كلالها
يهنّ أطيطٌ بين جوزٍ وكاهل[٣]
عذافرة تختال بالرّحل حرّةٍ
تباري قلاصاً كالنّعام الجوافل[٤]
بوقع دراكٍ غير ما متكلّفٍ
إذا هبطت وَعْثاً ولا متخاذل[٥]
كأنّ جريري ينتحي فيه مسحلٌ
من القُمْرِ بين الأنعمين فعاقل[٦]

---

(١) الجنّان: الجن، والفتلاء: الناقة. والبازل: الذي استكمل السنة الثامنة وقطر نابه.

(٢) السُّرى: سير الليل، والنيأة: الصوت الخفي.

(٣) النسوع: جمع نسع وهو الحبل. والكلال: التعب. والأطيط: الصّرير: وجوز الناقة: وسطها.

(٤) العذافرة: الناقة القوية الأمينة الظهر. والقلوص: الفتية من الإبل. والجوافل: الشوارد.

(٥) بوقع دراك: أي بسيرٍ على نسقٍ واحد، والوعث: الأرض ذات الرمل والطين.

(٦) الجرير: الزّمام من الجلد. وينتحي: يعتمد. والمسحل: العير. والقمر: أبيض البطون.

يـغــرّد فـي الأرض الــفــلاة بــعــانــةٍ
خمـاص البطون كـالصّعـاد الـذوابـل[١]
ونـــازحـــةٍ بـــالـقـيظ عـنـهــا جـحـــاشهـــا
وقــد قلّصت أطيــاؤهـــا بمكـــاحـــل[٢]
وهـــمّ بـــوردٍ بـــالـرّسـيس فـصـدّه
رجـالٌ قعـودٌ في الـدّجى بـالمعـابل[٣]
إذا وردت مـــاءً بـــلـيـــلٍ تـــعـــرّضــت
مخـــافـة رامٍ أو مخـــافـــة حـــابـــل[٤]

لقد بدأ كعب هذه القصيدة بالغزل حيث استغرق القسم الأكبر منها ثمّ انتهى منه إلى ركوب ناقته والسير بها في طرق الصحراء، واصفاً لهما بكل النعوت المألوفة، معرّجاً على وصف مشاهداته ناقلاً تفاصيلها بأسلوب نلمح فيه الـدقّة والجزالة والمتانة، ولكنّنا نلمح فيه أيضاً التفاصيل نفسها التي

---

(١) يغرّد: يصوّب. والعانة: الجماعة من حمر الوحش، والخماص: الهزال. والصعاد: جمع صعدة وهي القناة. والذوابل: الذاوية.

(٢) النازحة: الأتان، والقيظ: الحرّ. وقلصت: جف ضرعها. والأطياء: الأخلاف.

(٣) الورد: ورود الماء، والرّسيس: وادٍ فيه الماء، والمعابل: الحجارة بنيت مكامن للصيد.

(٤) تعرّضت: تلوّت في سيرها يمنة ويسرة، والرامي: الذي يرمي بالسهام، والحابل: أي الذي ينصب الحبال أشراكاً للايقاع بها.

اعتدنا أن نسمعها من أبيه ومن غيره من الشعراء السابقين.

ويبدو كعبٌ في هذه الأبيات صائغاً ماهراً ورث صنعةً تحدّرت إليه من أبيه، ومن أنماط صناعيّةٍ معروفة، إلا أنه حاول أن يبني لنفسه بيتاً خاصاً به، أو عقداً اختار حباته بنفسه، ولكنّ الحجارة التي استعملها في بناء ذلك البيت، لم تكن لتختلف عن غيرها من حجارة الآخرين، والحبّات لم تكن إلا حباتِ عقودٍ أفردها، ومن ثمّ عاد ليشك منها عقداً آخر يحمل طابعه الخاص وترتيبه المتفرّد، واستطاع إلى حدّ ما أن يبني لنا بيتاً جميلاً أو عقداً رائعاً، إلا أنه لم يستطع أن يخرج في ذلك البناء والترتيب على تقاليد عصره، بحيث ظلّ البناء أو العقد عملاً له نظائره، وصنعةً لها ما يحاكيها ويشابهها، فهو لم ينطلق إلى غايته من بواعث نفسيّة خاصة، أو مشاعر ذاتية ضاغطة، فرضت عليه أن يعبّر عن حاجاتٍ اعتملت في النفس، ووجدت في الشعر مجالاً للافصاح عنها بأسلوبٍ خاص يحمل كلّ توجعات الذّات وهموم الحياة، ولكن كعباً لم يفعل ذلك وآثر أن يسير في أبياته على طريق من تقدّمه، ففقد شعره بذلك رونق الجدّية وشمولية الأبعاد، وظلّت تنقصه التجربة التي تهزُّ المشاعر، وتبعث الكلم دفّاقاً مستلاً من الأعماق، حاملاً معه كل عناصر الشعر الأصيل.

وإذا نحن حاولنا أن نتجاوز هذا الموضوع إلى غيره من

الموضوعات الأخرى في شعر كعب، فإننا سنلمح في ديوانه شعراً متشابهاً في كثيرٍ من قصائده، وهذا حقيقةٌ نلمسها في نزوعه الدائم إلى وصف الصحراء والفاقة، وما في الصحراء من طرقٍ وحيوانات وتفاصيل تتكرّر هنا وهناك، يقلّبها الشاعر في صياغات متعدّدة حصرت خياله في بيئة لم يستطع التفلُّت منها، فظلّ يرسف في تقريرية قلّما تركت الخيال يبتكر ويتفتق عن معانٍ جديدة، وصورٍ ذهنية بارعة، حتى في مدحه للنبيّ عليه الصلاة والسلام، فإنّ روح التقليد يبدو واضحاً وجليّاً، وكأنّ الشاعر يمدح في شعره سيّداً من سادات قومه ورئيساً من رؤسائهم، لا نبيّاً جاء بأكبر انقلابٍ دينيّ عرفته البشرية، وأحدث تغيّرات أصيلة في جوهر الحياة الإنسانية قاطبة، وظلّ تأثّره بالدعوة الإسلامية عرفياً، فصاراه أنّ محمداً نبيّ الله وسيفٌ من سيوفه المسلولة، العفو عنده مأمول، والوعد لديه منجز، والتوبة في حضرته مقبولة، فهو كالأسد قوّةً وبطشاً وهيبة، فلولا قوله:

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلـ
ـة القرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل

وقوله:

إنّ الرسول لسيفٌ يستضاءُ به
مهنّدٌ من سيوف الله مسلول

وأبيات أخرى تصف همّه وخوفه واستسلامه لحكم الله، لما أمكننا أن نميّز معانيه المدحيّة ونعوته الوصفية، عن شاعرٍ كالنابغة وهو يعتذر إلى النعمان ويطلب منه العفو والصفح.

وهكذا نجد كعباً في كلّ شعره تقريباً يسير على السنن التقليدي المرسوم، دون أيّ إخلالٍ بنهجه وصُواه، ولكننا مع ذلك لا نريد أن نظلم الرجل أو نبخسه حقّه، لأنه لم يستطع أن يوجد تلك الفرادة البنائية المحبّبة في الشعر، فهو في شعره ذاك كان أيضاً على قدرٍ كبير من الإجادة والإحاطة التامة بتفاصيل الموصوف الظاهرة التي لم يحاول استبطان معانيها، واكتفى منها بالرسم الخارجيّ لها، مختاراً كلّ العبارات التي توائم ذلك، وتساعد على إبراز الموصوف وإحضاره أمام مرآة العين في خطوطٍ جذّابة، تصوّر بدقةٍ وأمانةٍ كلّ مكوّناته المادّية المحسوسة، حتى يبدو لك الشاعر نحّاتاً أصيلاً يصنع للموصوف تمثالاً جامداً يظهره لك بكل دقائقه وتفاصيله كما هو، دون أن يلبسه ثوباً من المشاعر، أو يسكب فيه نغم الحياة وصوتها الشجيّ المتحرّك، ويشير الدكتور فؤاد افرام البستاني إلى تلك الظاهرة فيقول: «إنّما شعره في أكثره تصوير، وتصويرٌ دقيق يسمو إلى درجة عالية من الصناعة، بل من الفنّ أحياناً، ولا عجب، فهو ابن زهير وتلميذه، وأحد أفراد ذلك المذهب التصويري المادي الذي بدأ بأوس بن

حجر زوج أمّ زهير، وبلغ أوجه مع زهير والنابغة، وكان من ممثليه شاعرنا كعب والحطيئة كما قدّمنا، وليس من حاجةٍ بهذا المذهب إلى كثير من الشعور الرقيق السّيّال، وإن كان الشعور يمدّه رونقاً وتشخيصاً وحياةً تزيد في قيمته، إنّما حاجته إلى الصبر في تتبّع الموصوفات، واختيار القوافي، وإلى قوّة الخيال أيضاً».

وسواءٌ بعد الذي سمعناه، أكان كعب في عداد شعراء المدرسة الأوسيّة، أم كان في غيرها، أو هو تأثّر بأبيه أو بالنابغة أو بغيرهما من الشعراء، فهو في نظرنا شاعرٌ مكتمل، ولكنّه لم يستطع أن يخرج عن إطار بيئته التي ظلّت تشدّه إليها بحبالٍ قويّةٍ وثابتة، فنظم على منوال ما نظم معاصروه، فكان واحداً منهم، تأثّر بما تأثّروا، وانتهج ما انتهجوا، بل ونراه في بعض الموضوعات كوصف الصحراء وطرقها وحيواناتها قد تفوّق على أكثرهم؛ وكان أكثر دقةً وتفصيلاً، وأكثر اختياراً واستيفاءً وتهذيباً، وحسب كعب في هذا المجال، أنه صفّى شعره من الشوائب، وتنخّل له أنسب الكلمات، وألمّ بموضوعه كلّ الإلمام الذي ينقل الصور نقلاً لا غبار عليه ولا شبهات، فكان تلميذاً بارعاً لأبيه، معترفاً بفضله، معتزّاً بالسّير على منواله، يقول كعب في ذلك:

فإن تسأل الأقوام عنّي فإنني
أنا ابن أبي سُلمى على رغم من زعمْ
أقول شبيهات بما قال عالماً
بهنّ ومن يشبه أباه فما ظلمْ
واشبهته من بين من وطيء الحصى
ولم ينتزعني شبهُ خالٍ ولا ابن عمْ

لقد حفل ديوان كعب بقصائد متنوّعة، ألّمت بكلّ الأغراض الشعرية في عصره، وهي قصائد استطاع كعبُ فيها أن يكون رسّاماً أو مصوّراً ينقل إليك عبر لغةٍ جزلة متينة، وبعيدةٍ عن الضعف والركاكة، مشاهد من بيئته الضاغطة التي فرضت عليه منحىً من القول، ومساراً إلى تغيير، وحسب كعب في هذا المجال أن يكون قد سلك لاحباً في صحرائه، واستطاع أن يصل إلى القمّة التي وصل إليها سالكوه، بل ويزيده فخراً على من تقدّمه أنّه لم يكن أسير ذلك اللا حب ونهج المتعرّج في كلّ أموره ومشاغله، بل كان شاعراً إنساناً عرف أين يضع أقدامه، ولذلك لم يتوانَ قيد لحظةٍ عن سلوك لا حب الخير والهداية والإيمان، بعد تيقّنه من صوابه وسلامة مسراه[1].

---

(١) راجع فيها كتبنا. حول بناء القصيدة. ديوان كعب بن زهير شرح ودراسة، د. مفيد محمد قميحة، حيث استفدنا أكثر ما أثبتناه.

لغته وأسلوبه

إنّ المطُلع على أشعار كعب في ديوانه يجد لغة تترواح بين الغرابة والغلظة، وبين السلاسة واللين، فهي تبدو شديدة وعرة قاسية في وصفه الصحراء وحيوانها وطرقها ومنازلها، لكنّها كلّما اقتربت من المشاعر وخصوصاً في غزلياته وحكمه المتفرّقة وأمثاله وبعض معانيه الاسلامية، فإننا في هذه جميعاً نشهد لغة مألوفة ومأنوسة، هذّبتها المشاعر، وصقلتها التجارب، وأخفى عليها الاسلام جدّةً وخلوداً.

أمّا أسلوب كعب، فيظهر كذلك أن الإسلام قد أحدث فيه بعض التغيّرات، إذا مدّه بكثيرٍ من المعاني الجديدة التي كتب لها الخلود والبقاء، فهو في قصائده التي قالها بعد الإسلام يميل إلى الرقة واللين، بينما نراه في قصائده الجاهلية شديداً جافّاً تبدو عليه غلظة الجاهلية وقسوتها وضيق أفقها الذي يحصر الخيال والمشاعر في صورٍ رتيبة ومجاراتٍ لا تسمحُ بالسّروح والانطلاق.

وهذا التغيير الذي قلنا إنه أصاب أسلوب كعب أحياناً، فإنه لم يكن ليشكل تغييراً جذرياً، لأنّ كعب ظلّ ملتزماً فيه

بالقيم الفنية التي ورثها عن أبيه ومدرسته الشعرية التي حوّلت الشعر إلى صنعة تتطلّب الكثير من الخبرة والرّوية والدراية، وهي صنعة في رآينا ليست متكلّفة، ولا هي بعيدةْ عن الذوق والعفوية والصدق في نقل الصور والمشاهد، لأنها تهدف إلى تصفية الشعر وتنقيحة وتخليصه من الشوائب والسقطات، بل هو في نظرنا استلهام لمعانٍ حديدة كتب لها الإسلام الحياة، فظلّت متداولةً بين الناس، وصارت مألوفة مستساغة في كلّ عصر، بعكس تلك المعاني التي بقيت أسيرة الصحراء، وغمرتها رمال الزمن، محرمتها نعمة التطور، وأضفت عليها البعد والغرابة والشدّة. .

نماذج من شعره

هل حبل رملة: من البسيط

هـــل حـبــل رملة قـبــل البين مـبتـورُ

أم أنت بـالحلم بعـد الجهــل معـذورُ[1]

مـا يجمـع الشـوق إن دارٌ بنـا شحــطت

ومثلهــا في تــداني الــدّار مـهجــور[2]

نـشقـى بهـا وهـي داءٌ لــو تصــاقبـنـا

كمــا اشتُفي بعيــاد الخمــر مخمــور[3]

مـا روضـةٌ من ريـاض الحـزن بـاكـرهـا

بــالنبـت مختلف الألــوان مـمــطور[4]

يــومـاً بــأطيبَ منهـا نـشــر رائـحـةٍ

بعــد المنــام إذا حبّ الـمعــاطيــر[5]

مــا أنس لا أنسهـا والــدمــع منسـربٌ

كــأنّــه لـؤلـؤٌ في الـخــدّ مــحــدور[6]

---

(١) البين: الهجران. المبتور: المنقطع.

(٢) شحطت: بعدت.

(٣) تصاقبنا: تدانينا، وعياد الخمر: أي العودة إليها.

(٤) الحزن: طريق بين المدينة وخيبر، والحزن الأرض الغليظة.

(٥) نشر رائحة: أي عبقها. والمعاطير: الذي من عادته التطيّب.

(٦) منسرب: مذروف. ومحدور: منحدر.

لـمّـا رأيتُـهُـمُ زمّـت جـمـالـهُـمُ
صـدّقت مـا زعمـوا والبين محـذور[1]

يـحـدو بـهـنّ أخـو قـاذورةٍ حـذرٌ
كـأنّـه بجـميـع النـاس مـوتـور[2]

كـأنّ اظعـانهـم تحـدى مـقـفّـيـةً
نـخـلٌ بعـينـين ملتفٌّ مـواقيـرُ[3]

غُلْبُ الـرّقـاب سقـاهـا جـدول سربٌ
أو مشعبٌ من أتيّ البـحـر مفـجـور[4]

هـل تبـلغنّي عليّ الخيـرِ ذعلبـةٌ
حـرفٌ تـرتـل عن أصـلابهـا الكـور[5]

مـن خلفهـا قـلُصٌ تجـري أزمـتهـا
قـد مسّهـن مـع الإدلاج تهـجيـر[6]

(١) زمّت: ربطت. والأزمّة: الحبال.

(٢) القاذورة: الناقة التي تبرك ناحية أخرى وتنافرها عند الحلب.

(٣) الاظعان: جمع ظعينة وهي المرأة في الهودج. وعينين: اسم مكان. ومواقير: كثر حملها.

(٤) غلب الرقاب: غلاظها. والمشعب: الطريق. والأتيّ: الموج والسّيل.

(٥) الذعلبة: الناقة السريعة. والحرف: الناقة الصلبة الضامرة. والكور: الرّحل.

(٦) القلص: النوق الفتيّة. والإدلاج: سير الليل. والتهجير: سير الهاجرة.

يخبطن بالقوم أنضاء السّريح وقد
لاذت من الشمس بالظلّ اليعافير[1]
قالوا تنحّوا فمسّوا الأرض فاحتولوا
ظلّاً بمنخرقٍ تهفو به المورُ[2]
ظلّوا كأنّ عليهم طائراً علقاً
يهفو إذا انسفرت عنه الأعاصير[3]
لوجهة الريح منهم جانبٌ سلبٌ
وجانبٌ يأكفّ القدم مَضبورُ[4]
حتى إذا أبردوا قاموا إلى قلصٍ
كأنهن قسيُّ الشوحط الزّور[5]
عواسلٌ كرعيل الرُّبد أفزعها
بالسّيِّ من قانسٍ شلٌّ وتنفيرُ[6]

---

(١) أنضاء: هُزال، والسريح: سَيرٌ تشدّ به الخدمة فوق رسغ البعير. واليعفور: الضبي.

(٢) احتولوا: احتوشوا، والمنخرق: المكان تتخرّق فيه الريح، أي تهب. والمور: التراب تسفّه الريح.

(٣) الطائر العلق: الواقع في الأشراك. يهفو: يطير. انسفرت: انكشفت.

(٤) السّلب: السريع. والمضبور: المجتمع الخلق الأملس.

(٥) أبردوا: دخلوا في العشي. الشواحط: ضرب من الشجر تتخذ من عوده القسيّ والزّور: الواحدة زوراء: أي القوس المنعطفة.

(٦) العواسل: المضطربة في سيرها. والرعيل: الجماعة. والرّبد: النعام القاتمة اللون. والسيّ: موضع. والشلّ: الطرد.

حتى سقى الليل سقي الجن فانغمست
في جوزه إذ دجا الأكام والقور[1]

غطّى النّشاز مع الآكام فاشتبها
كلاهما في سواد الليل مغمور[2]

إنّ عليّاً لميمونٌ نقيبته
بالصالحات من الأفعال مشهور[3]

صهر النبيّ وخير الناس مفتخراً
فكلُّ من رامه بالفخر مفخور

حلّى الطهورُ مع الأميّ أوّلهم
قبل المعاد وربّ الناس مكفورُ[4]

مقاومٌ لطغاة الشّرك يضرِبهم
حتى استقاموا ودين الله منصورُ[5]

بالعدل قمت أميناً حين خالفه
أهلُ الهوى وذوو الأهواء والزّور[6]

---

(١) جوزه: وسطه. ودجا: أظلم، والقور: الجبل المرتفع في السماء.

(٢) النشاز: ما ارتفع من الأرض.

(٣) النقيبة: السّجيّة والطبع.

(٤) المكفور: المحجوب، والمستور.

(٥) استقاموا: أي ثابوا إلى رشدهم.

(٦) في البيت إقواء، وهو اختلاف حركة الروي عمّا قبله وبعده.

يـا خيـر من حملت نعـلاً لـه قـدمٌ
بعـد النبيِّ لـديـه البُغي مـهجـور
أعـطاك ربّـك فـضـلاً لا زوال لـه
مـن أين أنّـى لـه الأيـام تـغـيـير

ألا أسماء صرّمت الحبالا: من الوافر

ألا أسـمـاء صـرّمـت الـحـبـالا
فـأصـبـح غـاديـاً عـزم ارتـحـالا[1]
وذات الـعـرض قـد تـأتـي إذا مـا
أرادت صـرم خـلّـتـهـا الـجـمـالا[2]
تـعـاورهـا الـوشـاة فـغـيّـروهـا
عن الحـال التي في الـدّهـر حـالا[3]
ومـن لا يـفـتـأ الـواشـيـن عـنـه
صـبـاح مـسـاء يـنـحـوه الـخَـبَـالا[4]
فـسـلّ طـلابـهـا وتـعـزّ عـنـهـا
بـنـاجـيـةٍ كـأن بـهـا خـيـالا[5]

---

(١) صرّمت: قطعت.

(٢) ذات العرض: أي ذات الحسب والشرف، يريد أنها إذا هجرت أبقت للمودّة موضعاً.

(٣) تعاورها: اكتنفها.

(٤) يفتأ: يردّ. والخبال: الفساد في العقل والرأي.

(٥) سلّ طلابها: تعزّ عنها. والناجية: السريعة من النوق.

أمونٍ ما تملُّ وما تشكى
إذا جشَّمتها يوماً كلالا[1]

فأبلغ إن عرضت بنا رسُولاً
أبا المملوح إنّ له جلالا[2]

أمودٍ خلفكم هرماً ولمّا
تذوقوا من عداوتنا وبالا[3]

ولمّا تفعلوا إلاّ وعيداً
كفى بوعيدكم لهُمُ قتالا[4]

وعيدٌ تخرجُ الأرحام منه
وينقل من أماكنها الجبالا[5]

خفيف الغيث تعجبُ من رآه
مخيلتُه ولم تقطر بلالا[6]

---

(١) الأمون: الأمينة السّير التي لا يخشى عِثارها. والكلال: الاعياء.

(٢) عرضت بنا: مررت بنا وجزت.

(٣) المودي: الهالك. والوبال: سوء العاقبة.

(٤) الوعيد: التهديد.

(٥) تخرج الأرحام: تضع ذوات الحمل لغير ميعادها.

(٦) مخيلته: رؤياه. والبلال: القطرة، المعنى إنه غيث يحسبه الناظر ممطراً إلا إلاّ أنّ الريح تفرّقه فلا يمطر قطرة واحدة.

شبانٌ وشبب: من الوافر

نفى أهلَ الحبلَّق يوم وجٍ
مُزَيْنَةُ جهرة وبنو خفاف[1]
صبحناهم بألفٍ من سُلَيمٍ
وألفٍ من بني عثمان واف[2]
حدوا أكتافهم ضرباً وطعناً
ورمياً بالمريّشة اللطاف[3]
رميناهم بشبّانٍ وشيبٍ
تكفكف كلّ ممتنع العطاف[4]
ترى بين الصّفوف لهنّ رشقاً
كما انصاع الفُواق عن الرّصاف[5]

(١) الحبلّق: الغنم الصغير. ووجّ: الطائف.

(٢) الوافي: التام.

(٣) حدوا: اتبعوا. والمريّشة: السهام.

(٤) العطاف: الواحد عطف، وهو الجنب، يقال: مال بعطفيه، أيّ تكبّر.

(٥) الفُواق: موقع الوتر من ريش السهم. والرّصاف: عقب يشدّ على الفوق.

ترى الجردَ الجياد تلوحُ فيهم
بأرماح مقدّمةِ الثقاف[1]
ورحنا غانمين بما أردنا
وراحوا نادمين على الخلاف[2]
وأعطينا رسول الله منّا
مواثيقاً على حُسْنِ التصافي[3]
فجزنا ببطن مكّة وامتنعنا
بتقوى الله والبيض الخفاف[4]
وحلٍّ عمودنا حجرات نجدٍ
فألية فالقُدوس إلى شراف[5]
أرادوا اللاَّت والعزَّ إلهاً
كفى الله دون اللاّت كاف[6]

---

(١) الجُرد: القصيرة الشعر من الخيل. والثقاف: حديدة يقوّم بها الحديد المعوج.

(٢) الخلاف: أراد به مخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٣) المواثيق: العهود.

(٤) جزنا: قطعنا. والبيض: السيوف.

(٥) العمود: خباءٌ طويل يقرب على الأعمدة فيقال لأهله عليكم بأهل ذاك العمود. وشراف: ماءٌ بنجد.

(٦) اللاّت والعزّى: من أصنام العرب.

ألا ليت سلمى: من الطويل

مـا بـرح الـرّسمُ الـذي بين حنجـرٍ
وذلفـة حتى قيـل هـل هـو نـازحُ[1]
ومـا زلت تـرجـو نفع سُعـدى وَوُدُّها
وتبعـدُي حتى أبيْضّ منك المسـائحُ[2]
وحـتى رأيـت الـشـخص يـزدادُ مثـلَهُ
إلـيـه وحتـى نـصـفُ رأسيَ واضـحُ[3]
عـلا حـاجـبيّ الـشـيـبُ كـأنّـه
طبـاءُ جـرت منهـا سنيـحٌ وبـارح[4]
فـأصـبـحـت لا أبـتـاعُ إلاّ مـؤامـراً
ومـا بيـعُ من يبتـاعُ مثليَ رابـح[5]

---

(١) الرّسم: الأثر، وحنجر: مكان. وذلفة: مكان أيضاً. والنازح: المرتحل.

(٢) المسائح: شعر جانبي الرأس.

(٣) الواضح: من الوضح وهو الشيب، يريد أنه كبر وضعف بصره.

(٤) السانح: ما مرّ عن يمينك. والبارح: ما مرّ عن شمالك، وهما لليمن والشؤم.

(٥) المؤامر: المشاور.

ألا ليت سلمى كلّما حان ذكرها
تبلّغها عنّي الرّياح النوافح[١]
وقالت تعلّم إنّ ما كان بيننا
إليك آداء إن عهدك صالح[٢]
جميعاً تؤدّية إليك أمانتي
كما أدّيت بعد الغراز المنائح[٣]
وقالت تعلّم إنّ بعض حموّتي
وبعلي غضابٌ كلّهم لك كاشح[٤]
يحدّون بالأيدي الشّفار وكلّهم
لحلقك لو يسطيع حلقك ذابح[٥]
وهزّة أضعانٍ عليهنّ بهجةٌ
طلبت وريعان الصّبابي جامح[٦]
فلّما قضينا منى مِنىً كلُّ حاجةٍ
ومسح ركن البيت من هو ماسح[٧]

---

(١) النوافح: التي تهب.
(٢) تعلّم: بمعنى اعلم. والأداء: المؤدي إليك.
(٣) الغراز: قلّة اللبن. والمنائح: الواحد منيحة وهي الشاة أو الناقة.
(٤) الحموة: أقارب الزوج. والكاشح: المبغض.
(٥) يحدّون: أي يسنّون ويشحذون. والشّفار: حدّ السيوف.
(٦) الأظعان: النساء في هوادجهن. والجامح: الذي يجمع به عن رزانته.
(٧) منىً: في درج الوادي الذي ينزله الحاج ويرمي فيه الجمار من الحرم.

وشـدّت على حُـدب المهـاري رحـالُهـا

ولا ينــظر الغـادي الــذي هـو رائــح[1]

فقِلْنــا على الهُـوجِ المــراسيـل وارتمت

بهنّ الصحـارى والصّمـاد الصحـاصح[2]

نــزعـنـا بـأطـراف الأحــاديث بـيننــا

ومــالت بـأعنـاق المـطيِّ الأبـاطـح[3]

وطـرتُ إلــى قــوداءَ قــاد تـليـلُهـا

منــاكبهــا واشتــدّ منهــا الـجـوانــح[4]

كـأنّي كسـوت الـرّحـل جـونـاً ربـاعيـاً

تضمّنــه وادي الــرّجـا فـالأفـايـح[5]

---

(١) الحدب: الواحد أحدب وحدباء. والمهاري: منسوبة إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن وهي سريعة لا تعادل سرعتها. والغادي: الرائح غداة أي في الصباح. والرائح: أي السائر في المساء.

(٢) قِلْنا: من القائلة وهو النوم في منتصف النهار. والمراسيل: السريعة الجري. والصّماد: ما غلظ من الأرض. والصحاصح: ما استوى من الأرض وانبسط.

(٣) نزعنا: أخذنا. والأباطح: جمع أبطح وهو مكان متسع منبسط يسيل فيه الماء فيخلّف التراب والحصى.

(٤) القوداء: الناقة الطويلة العنق. والتليل: العنق. وقاد: تقدّم. والجوانح: أضلاع الصدر.

(٥) الجون: الحمار الوحشي. والرباعي: الذي سقطت رباعيته وهي السنّ التي بين الثنية والناب، والرجا والأفايح: موضعان.

مُـمَـرّاً كـعـقـد الأنـدريِّ مـدّمـجـاً
بـدا قـارحٌ مـنـه ولـم يـبـدُ قـارح[1]
كـأنّ عـلـيـه مـن قـبـاءٍ بـطـانـةً
تفـرَّج عنـهـا جيبهـا والـمنـاضـح[2]
أخـو الأرض يستخفي بهـا غيـر أنّـه
إذا استـافَ منها قـارحـاً فهـو صـائـح[3]
دعـاهـا مـن الأمهـاد أمـهـاد عـامـرٍ
وهـاجت من الشِّعـرى عليـه البـوارح[4]

(١) المُمَرّ: الذي احكم فتله. والأندريّ: منسوب إلى أندر تعمل فيها الحبال. والمدمّج: المحكم الفتل. والقارح: الناب الذي ينبب بعد سقوط السنّ الرباعية.

(٢) يقال: إنّما أراد أن عليه بياضاً من لونه قد جلّل سراته وبطنه.

(٣) استاف: شمّ. والقارح: الحامل.

(٤) هاجت: اشتدّ حرّها. والشّعرى: الكوكب الذي يطلع في الجوزاء، وطلوعه في شدة الحرة. والبوارح: الرياح الحارة في الصيف.

ثبت المصادر والمراجع

ابن سلام الجمعي ـ طبقات الشعراء
ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء
الأصبهاني ـ الأغاني
المسعودي ـ مروج الذهب
الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك
ابن خلدون ـ المقدمة
ياقوت الحموي ـ معجم البلدان
طه حسين ـ في الأدب الجاهلي
أحمد أمين ـ فجر الإسلام
علي فاعور ـ ديوان كعب
مفيد قميحة ـ شرح ودراسة ديوان كعب
بطرس البستاني ـ أدباء العرب
شوقي ضيف ـ تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي
عبد العزيز عتيق ـ علم العروض والقافية
محمد حسين ـ الهجاء والهجّاؤون
صلاح الدين المنجّد ـ جمال المرأة عند العرب
محمود الألوسي ـ بلوغ الأرب

فهرس الموضوعات